الفصل (الأول)

((التأبين))

obeikandl.com

obeikandl.com

(التأبيـــن)

وهو: الثناء على الشخص ومَدْحته ميتاً، - واقتفاءُ أثر الشيء [١]-

وأبّنت المرء، أي: أثنيتُ عليه ومدحته ميّتاً، وذكرت محاسنه، بعد موته[٢]، كما اختصر الناظم:

وما المرء .. إلا ذكره ومآثره!

و(أبنتُ) – أظهرتُ-: عن خفايا إحسانهُ.. التي كانت – خوفاً من الرياء – يُخفيها!، وكم أجاد الشاعر في سبْك هذا المعنى، بهذا المبنى:

وأحسن الحالات حالُ امرئٍ ... تطيب (بعد الموت) [٣] أخباره

يفنى ويبقى (ذكره) [٤] بعده ... إذا خلت من شخصه داره

فهو – إذاً، وكما سيأتي ص١٠٣ فما بعدها – منقبة السابقين في ذكر شمائل الأولين.

أجل،.. كم حرص الصالحون على هذه (المزيّة)، اخفاءً للفعل الحميد.. ولو خوف المرآءة، قال تعالى – على لسان يعقوب عليه السلام-: ﴿ فَصَبْرٌ

---

(١) وجاء من معناها: (فصدُ) عِرق ليؤخذ دمُه فيُسوى ويؤكل.
- انظر: "القاموس المحيط" ص ١١٤٧/ للفيروز آبادي -

(٢) وعكسها: التَّقريظ، أي: مدح الرجل حَيّاً – كذا ذكر ابن قتيبة في (أدب الكاتب) ص ١٧٢- وكذا قولك عن شخصٍ ما: (رحمه الله) كناية عن وفاته، و(وفقه الله) إخباراً عن أنه حيٌّ يُرزق- عرّفت- أو فرّقت- اللغة بين الرثاء وبين التأبين فقالت: إن التأبين هو الثناء على الشخص بعد موته، أما الرثاء فبكاء الميت.. وتعديد محاسنه، ونظم الشعر فيه.
.. قال (لبيد) رحمه الله.. عن نفسه " تأبيناً" لها قبل فراقها:

فقوما وقولا بالذي تعلمانه ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه ... أضاع، ولا خان الصديق ولا غدر

(٣) وقد مُدح الكثيرون بهذهِ كـ (القاسم بن عيسى) أبادُلف:

يا أكرم العالم موجودا ... ويا أعزّ الناس مفقودا

(٤) وقد فُطن لهذا، حتى في العصر الجاهلي، قال حاتم الطائي: مخاطباً زوجه (ماوية):

أماويُّ إن المال غاد ورائحُ ... ويبقى من المال الأحاديثُ و (الذكر)

جَمِيلٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ (يوسف ٨٣) ، أي – كما عرّفه ابن عباس ﷺ-: (ذاك الذي ليس فيه.. أو معه: شكوى).

.. قال (الحسن البصري) رحمه الله – حين خشع.. فانتبه له بعض من حوله – : (لحى الله الزُّكام .. وما يفعل ![1]).

وأذكر لـ (أبي)عندما كان مريضاً في مرضه الذي تُوفي فيه -رحمه الله-، حين قال لنا الطبيب[2]: (إن والدكم يشعر بآلام رهيبة، ولكنه يتجلّد ولا يُبدي ذلك لكم، لئلا تشعروا بذلك، أو تتألّموا لألمه)، بلّغه الله.. ما وعد: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الحج ٣٥) و.. رحمه رحمة واسعة.

حتى أنه يذكرك جلده بصنيع الإمام (أحمد) حين كان يأنّ[3] في سكرات الموت، فقال له (طاووس) : " إني أُنبئتُ أن الملائكة تكتب الأنين "، فسكت (صابراً[4] و.. محتسباً)..عليهم شآبيب الرحمة.

ثم .. والتأبين : هو حالُ الصدق ، الذي لا مراء فيه أو دافعه الخوف، ولا رجاء فضلٍ من صاحبه وقد وُسِّد في الثّرى – ومن الحياة .. انقضى –.. فهي شهادة الصدق والقول الحق!، ف (المدح) في حق الميت لامراء فيه ولا تزلف وراءه أو تملّق يُرجى إثره! .. فالمصلحة الظاهرة فيه: إعطاء كل ذي حق ما يستحق.

ونستعيذ بالله ممن (قد)[5] يعنيهم الحديث:{إحثو التراب على وجوه المداحين} !

لأني أعمد - وهذا ما أرومه لنفسي-: إلى تحرّي العدل والإنصاف، وأنأ بقولي عن الهوى والاجحاف.

وحسبي أني ما قلت فيهم إلا بعد أُفولِهم، حتى لا يُظنّ بخاطبي، أو يُذهب بفهم بعضه إلى منحى التزلّف، أو.. الخ.

---

(١) توريةً، عن أن يعرف من حوله أثر خشوعه .

.. وكانت مقام الوالده: نورة المانع (أم أخي عبدالله) – وفي مرضها موتها – وهي بالإنعاش، حين تُسأل عن صحتها إذا ما فاقت..، تُجيب : (غزال.. والشّر زال) رحمها الله و.. والديها .

(٢) وهذا تعليله هو (الألماني)، ولم يبلغه: أن فعل والدي آتٍ (إحتساباً) لِلهِ .. بإذن الله .

(٣) الأنين : صوت التوجّع من الألم.

(٤) وانظر في ما يأتي – ص٩٩-

(٥) قد : تفيد هنا (التوقع) .. مع المضارع.

ولهذا تجد غالب الصالحين، حين يُكرّم - بالدنيا - يرتاب[١] أو يدعوا .. مخلصاً (أن لا يكون هذا حظه ..) أي : وقفاً على التكريم بالدينا!، أو عطفاً على ما روى مسلم من حديث: { إنما قاتلت ليقال شجاع، وقد قيل.. } الخ.

.. وقال أحد أهل العلم، حين مُدح عنده من له جُهد دُنيوي، وليس لديه إيمان - ظاهر - بـ : وأحسب أن هذا حظه .. مما قدّم!

لكن نقول نحن (له) جمعاً للحُسنيين: أن هذا {عاجل بشرى المؤمن} - بإذن الله-

وألفت لهذا.. المراد: حديث المصطفى ﷺ : { أنتم شهود الله في أرضه } .. وكما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحشر ١٠)، ألا فلنكيل الثناء على شخوص علموا فينا، وبقي ذكراهم بالقلب عالق.

.. فالذكر، وما أدراك ما الذكر! ، وهل بقي شيء بعد الموت يطمحُ لأن يُبقي أثراً لصاحبه في الدنيا.. غيره، بخاصة مَن: ﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق ٣٧) .

إذاً: الغالب في عرض هذه (السّير) - أو ما يُكتب عن هذه النماذج .. وتُثبّت -: إلا ليتُمثّل بحسن فعل أصحابها، .. فـ :

تشبّهوا[٢] .. إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالكرام فلاحُ

وإن كان الأَولى[٣] أن : **نبني فوق ما صنعوا** - فما الحياة إلا إلى رُقيّ-

و .. كما في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴿١١﴾ ﴾ (التحريم ١١)، وكذا ثناءه[٤] سبحانه بـ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحزاب ٢٣) وهكذا.. - والله أعلم -

---

(١) أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر ثابت البناني أن " مطرّف بن عبدالله بن الشخير" قال لابن أبي مسلم: (ما مدحني أحد قط إلا تصاغرت عليَّ نفسي)- لأن " إعجاب المرء بنفسه، أحد حساد عقله"!-

(٢) من معنى لأبي تمام :

- شابه أباه (عُديّ) بالكرم - .. (ومن يُشابه أباه فما ظلم)

(٣) ومن رضي بالموجود .. فقد تواضع (جداً) مطلبه!!

(٤) لما رأى الرسول ﷺ مصعب بن عمير مضرّجاً بدمائه في يوم (أحد)، قال - مستشهداً - : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحزاب ٢٣).

ولعل كهذا أي (التأبين لأولئك)، هو من باب الكرامة التي تُسدى إليهم/ بأن يُعاد التذكير بهم، والدعاء لهم، فلتَدعْ وراءك ما يُذكر لك وتُشكر[١] عليه.

وهذا ما أمال قلوب الصالحين.. لينالوه، قال عبد الكريم الجهيمان :

سعيتُ عُمري حثيثا ... أريد جاها ومالا
أريد (مجداً)[٢] تليدا ... وعزّة وكمالا

وقد أرشد د. "محمد الخراز" في الفرق بين القول في حق الميت: (رحمه الله) أو (عفا الله عنه)، حيث قال : "كان أجدادنا الفاهمون يفرقون بينهما، فمن علموا عليه في حياته من الهنات والأخطاء الظاهرة دعوا له بالعفو، ومن علموا من ظاهر حاله الصلاح والاستقامة في حياته طلبوا له الرحمة والمغفرة، ليس فعلهم هذا شرعاً، ولا فتوى، لكنها فطرة نقدية جُبلوا عليها".

وهنا يبرز سؤالٌ، فيسبق (غالب) ما تقدم :

هل نحن ذوو: الوفاء المتأخّر!، أو السهو .. عما كان له أهلٌ آناء حياة (المؤبّن)!

.. أم سكرةُ الدُّنيا أخذتنا.. حتى لا نفيق إلا على وقع خبر (فراق) غالٍ - علينا- .. فنُشيّعه بما كان له أهلٌ في حياته، وننسى (جحودنا) ! .. أو حتى لا أتعدّى[٣] حين أقول: تقصيرنا نحوه .. إذ كان بين ظهرانينا!

هذا هو الـ (سؤال)، ومتى أو كيف يكون جوابه.. ونحن - وإن أعدنا عتبنا على ذواتنا[٤]- : سادرون إثر منوال هذا، لا نكفّ ، أو حتى نُصحّح خطأ السير فيما نحن فيه!، ألم تستفزّنا بعدُ مقولة لعمر ﷺ: (أحب الناس إليّ من رَفَع إلي عيوبي)[٥] .

---

(١) .. كما فعل(*) (نوبل) ت ١٨٩٦م – الذي حاز على أكثر من براءة اختراع – بجائزته المعروفة عالمياً باسمه.
- (*) .. وسبباً : انظر ثنايا هامش (٤) ص ١٣٧ -
(٢) قال (غوته) " الحياة العقيمة – أي عن الإنتاج- موت مُسبق ".
(٣) .. هنا ملحظ – طرقه ابن تيمية – في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ (النحل ١٢٦) أنه : (لا يجوز التعدي بالدعاء، كما لا يجوز الدعاء على الكافرين بعامة)!
.. وهذا ما يجب أن يُنبّه له، بخاصة اليوم .
(٤) .. ولي مادة مقاربة لهذا المعنى : (لنفتح عيوننا على عيوبنا)!- نشرت بصحيفة (الجزيرة)- عدد / ٨٢٣٧-
(٥) تاريخ الخلفاء - ص ١٣٠- .

.. الباقـي [*]:

أولاً : .. في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحشر ١٨) ، هذا المطلوب من العامه، أمّا الخاصّه ، فقد قال لنا المولى سبحانه عنهم : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (مريم ١٦): أي.. (يأمر الله رسوله أن تُذكر في الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، أن تذُكر فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل ..)، كما ..وعلل بعد ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ (مريم ٤١) : (لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وإحسانه إليهم وفي الحثّ على الإيمان بهم ومحبتهم والاقتداء بهم) .. حتى قال[٢] :

(وهناك من ذُكر بالقرآن وليس نبي، كلقمان وذي القرنين والخضر، ومريم عليهم السلام، لكنهم أُناس حازوا من الفضل والثناء والتزكية ما جعل ذكرهم يخلّده القرآن).

- ومـا (الباقيـات) لكـل إمـرئٍ سـوى الصـالحات، وحُسـن الـذكر-

فهذا الأثر أوّل دوافعه " الهِمّة"[٣].. التي دعت سعد بن معاذ ﷺ، ليقول للرسول ﷺ : (والله لو سرت بنا هذا البحر لخضناه معك..) فأيّ قوّة يستمدها تلك التي يأوي إليها في قوله هذا؟، الجواب : ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران١٥٩] وإن إتكاء هذا بعد العزيمة: على القدرات، لا المُنى فقط.

(*) انظر فصل (الذكر) ص٣٩ وما بعده من كتابي (هذا أبي) بما لا يحتاج إلى الإعادة.

(٢) أي العلاّمة (عبد الرحمن السعدي) في تفسيره – لسورة : مريم –.

(٣) .. فهل تعلم - مثلاً- أن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أسلم قبل والده بعام كامل تقريباً، وانظر فارق أثر كل منهما - لا تقليل من هذا الصحابي الجليل (الذي كان من أحد السبعة في اختيار الخليفة) بعد مقتل والده -، لكن قُدرات كل واحد منهما.. هي سبب تقديم أحدهما (رضي الله عنهما).

.. وهذه التي صيّرت (مسلمة بن عبد الملك) يقول لإبن عمه (عمر بن عبد العزيز):

(لقد أبقيت لنا في الصالحين ذكرى) [١]، فلا عجب.. وهو صاحب النفس التوّاقة، التي قال عنها:

(إن لي نفساً تواقه، لم تتق إلى منزلة إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة – أي بالدنيا، ويعني: (الخلافة) -، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة) [٢] - مع ما يأتي ص ١٠٣ فما بعدها-

قال الله : تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (يس ١٢) - وآثارهم: أي ما تركوا من أعمال، وآثار باقية بعدهم [٣]-

.. ومما يُقرّبه لنا - الحكيم- المتنبي.. في الفرق بتطاول السنين بين (سيف الدولة) ولدّاته [٤]:

فإن حظّك من تكرارها شرفٌ وحظّ غيرك منها: الشيب والهرمُ

.. فلا يبني (مجداً) أبداً.. أولئك الخاملون- أو.. الخانعون خلف أحلامهم الذاتية- أو: (الهمل) [٥] الرُّعاع، .. فـ:

.. كم مِن شقيٍّ ميّتٍ بحياته ولكم أُناس في (الثَّرى) أحياءُ

---

(١) كتاب (الكامل في الأدب) ١/١٥٠ – أجل :

فأعطاه الله مجداً ورفعة هو الله يُعطي من يشاء ويمنعُ-

(٢) والنابغة الذبياني- من قبله- يقول للرسول ﷺ، حين سأله: { إلى أين المظهر..؟} قال: (إلى الجنة) يا رسول الله.

(٣) .. (وآثارهم) شاهدنا، أي : " آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها وبقيت بعدهم، وبعد رحيلهم " - ص ٦٩٣ من تفسير السعدي.

.. وكما قال المتنبي : **أين الذي الهرمان من بنيانه؟!**

(٤) لدت المرء : من وُلد معه – بنفس العام -

(٥) .. ومن هنا يستفزّ (كوكتن) ذوي الهمم بـ (العظيم.. لا ينتهز الفرصة، بل يُوجدها)- انظر في ص٢١٤/٢١٥، وهامش (٢) ص١٩٩-

ويؤكد هذا (عدي الغساني) :

لـيس مـن مـات فاسـتراح بميـت لكـــن الميـــت ميّـــت الأحيـــاء[1]

فإنه من المجمع عليه أن الأمور العظيمة يتصدى لها ذوو الهمم العالية، والأمور الهيّنة وقعها يرتاح لها ويقبل عليها ذوو الهمم الضعيفة، يؤكد ذلك هذان البيتان الجميلان :

إذا صـغرت نفـس الفتـى كـان همـه صـــغيراً فلـــم يتعـــب ولم يتجشـــم

ومـن كـان جبـار المطـامع لم يـزل يلاقـــي مـــن الـــدنيا ضـــراوة قشـــعم

فـ: الهموم لا حدود لها، فهي تبدأ (بمصاحبة الإنسان) منذ أن يعقل ويرشد، وتزداد كلّما زادت مسؤولياته، ولا يوجد إنسان خالٌ من الهمّ إلا إن خلا من العقل، وهذا الذي ذكره المتنبي بقوله :

أفاضـل النـاس أغـراض لـدى الـزمن يخلـو مـن الهـمِّ أخلاهـم مـن الفِطـن

ويُفضي (الحُطيئة).. عن أولئك :

مَـن يفعـل الخـير لا يُعـدم جوازيَـه لا يـذهب العُـرف[2] بـين اللهِ والنـاس

- .. أجل وربي، لا يذهب.. ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل ٤٠) -

أي : ذاك الحميد الذي يمضي صاحبه، وهو باقٍ كـ (صدقةً) جارية.. تَبقىْ وتُبقي أثراً بعد وفاة من أجراها[3]، وأيضاً حُسن صنيع يخلد بعده- كما أكّد أحمد شوقي:

---

(١) وهذا تعريف مُعلل، فقد سُئل أحد المصلحين : من ميّت الأحياء؟، قال : (الذين لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً).

(٢) بل هي كـ (الذمم) لدى أهلها- أي: ممن يقدّرونها -، قال المتنبي : **إن المعارف في أهل النُّهى ذِمَمُ**

(٣) وهاك : (أسماء بنت مصطفى آغا) .. بغدادية، من ربّات (البرّ والإحسان)، أوقفت أملاكها في وجوه البر البر والخير – على فقراء بغداد – ومن قبل (زبيده) التي أوقفت للحجيج عينا تسمّى باسمها .. ما يسطر لهن بماء الذهب – رحمهن الله -.

فـارفع لنفسـك قبـل موتـك ذكرهـا فالـــذكر للمـــرء عُمـــرٌ ثـــان-

والأسمى من هذا: ذاك الفعل الذي يُحسن به صاحبه لعصره كله!

مثل - أو كما أحسب- (سيد قطب) القائل: (كلماتنا تظل جثث هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها احترقت فأضأت.. أو حيت في القلوب).. فالمُصلح يخرج من الدنيا ليدخل (مباشرة) إلى التاريخ[1]! .. كما أكّد هذا الشيخ عبدالله العلايلي: (إن المصلح قد يخسر نفسه في عصره، ولكن ليملك العصور التالية).

قال أبو تمام: **إني رأيت الكريم الحرّ (ليس له عُمرُ!)**

أمّا ذاك الذي لا يُطال ، ذاك المُحسن إلى الأمّة قاطبة، ولم ينله غير (الرحمة) المجتباة، والقدوة العظيمة: محمد[2] ﷺ . فهو إمام المصلحين، وقائد الغرّ المحجلين.

– ولا أظن في القول مهما طال أو تحذلقت في جُمله بلوغ نزر من محامده.. أو إدراك جمّ فضائله!، أو أُحصيها.. فضلاً عن أن أعدّها ، وهذا مما هو مفروغ منه-

.. بل أبني وآهن (جهدي) الضعيف بحقه ﷺ، بما أوجزه (د. سلمان العوده): " لقد قرأتُ سير المصلحين والعظماء والزعماء، وأئمة المذاهب الكبار، وحتى إني قد أشعر حين أقرأ عن أحدهم أني أمام جبل وعر المرتقى، لأنهم أخذوا أنفسهم بشيء من الجد الذي يصيب المرء بالعجز عن إدراكه وصعوبة الأقتداء به، وربما استحالته!

---

(١) .. وبهذا قال عبيدة بن عمير (علامة الأخلاص: أن لا تطمع في الناس، ولا تحب محمدتهم).
وهاك ما يدعمها : (كان " محمود نور" يسير مع رفقته والشمس خلفهم، ثم توقف وآدار وجهته إلى الشمس، وقال لهم: مشيراً إلى ظله: هكذا الدنيا، إذا تركتها وراء ظهرك تبعتك وإن تبعتها فرّت منك)-

(٢) انظر محاولتي المتواضعة.. في كتابي : (منهلٌ من /السيرة الزكيّة لخير البرية).

.. أما إمام هؤلاء جميعاً وسيدهم قاطبة : محمد ﷺ، فتشعر وأنت تقرأ سيرته بالسهولة والقابلية للتطبيق والقرب من النفس البشرية وطباع الناس .. وهذا سرٌ بديع من أسرار إعجاز الشخصية النبوية".

.. ونعود، لنذكّر بأن : هذا (الحميد) ليس لكل أحد.

بل.. لذاك الذي يبلغ منه – حين يطّلع المولى على صدق نيّته- إخلاصاً.. وصدقاً وتفانياً، وهذا.. ما أُمليه وأُأمّل بلوغه في طرحي (هذا) – بخاصة وأنا أتحرّى (فعلاً) لأُقدّم ما يوازي مقدار أولئك!-

إذ أنَّ الواعظ (المحترق) تصل كلماته إلى شغاف القلوب، وتغوص في أعماق الروح، لأنه[1] يعيش الألم والمعاناة ﴿ ۞ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الفتح ١٨).

.. وما من داعي لهذا القول،إلا لأن هناك مصنّفات في الوعظ لا تهزّ في السامع شعره، ولا تحرّك في المنُصت ذرّة، لأن أصحابها –غالباً-: يقولونها بلا حُرقة[2] أو لوعة، ولا ألم أو مُعاناة .. كحال أولئك الذين: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ ﴿١٦٧﴾ (ال عمران ١٦٧) .

---

(١) .. وكذا قال أحدهم : لقد رأيت دواوين لشعراء ولكنها باردة لا حياة فيها ولا روح، لأنهم قالوها بلا عناء ونظموها في رخاء. فجاءت قطعاً من الثلج وكتلاً من الطين.

- .. وأتمم القول: فرق بين النائحة المستأجرة، والنائحة الثكلى[*]!، ف (**ليس من بكى كمن قد تباكى**)!

و.. قال أبو الطيّب مقرّباً:

لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى يكون حشاك في أحشائه

[*] فالأولى (محترفة) والثانية (محترقة) -

(٢) .. ومن هنا برّ حافظ إبراهيم.. أحمد شوقي في الرثاء كما قيل، لأنه كان يصوغه وهو يتحرّق على فراق الفقيد، بينما شوقي.. يذهب إلى النسج عما في الحكمة من الموت، وإلى وصف الفقيد أكثر من البكاء عليه.

فإذا أردت أن تُؤثّر بكلامك أو – حتى – بشعرك، فاحترق به أنت قبل[١]، وتأثر به، وذقه تفاعلاً معه، وسوف ترى بعدها تأثيرك في الناس، فهم.. كالتّربة الصالحة: ﴿ إِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ﴾ (الحج ٥..) .

وأعود لأمثّل، فإن في التمثيل أيسر (تقريب)، اليتيم:

الحقيقة أنه إن لم يتربّي في كنف والديه أو أحدهما (إن سبق الآخر .. للآخرة) بخاصة في مطلع الحياة، يجد لذلك الفقد أثراً في قوام حياته، مهما تجلّد، أو حاول إخفائه!

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة في هذا، إذ كان براً رحيماً عطوفاً، يُحسّ بما يحتاجه (الفاقد)، إذ {كان يمسح على رأس اليتيم}[٢] تبسّطاً له وتليّناً معه، ولإحساسه أن الجميع أباءً له وأُمهات، ولا غرو.. وقد قال له مولاه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ ﴾ (الضحى ٦..) ..

ولهذا علّق جعفر الصادق عن سبب يُتمه ﷺ ، تعليلاً:

(لئلا يكون لمخلوق عليه حق[٣]) أي : حتى والديه، حين لم يتربّى بحجرهما!

(١) أي ليبين الصدق.. مع نفسك - .. في تأثّرك- قبل أن تطلبه من غيرك.
قال الأصمعي : قلت لأعرابي : ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟! قال : (لأننا نقولها وقلوبنا محترقة).
(٢) وقد أثبتت عن دراسة حديثه أثبتت (إن المسح على رأس الطفل – دون سنّ الثالثة- يُنمّي لديه الذكاء).
(٣) الجامع لأحكام القرآن - ج٢/ ص ٩٦-

الاطـراء [*]:

سؤال يبتدرنا : هل الموتى- فعلاً – موضع اطراء؟، أم أنه لا يموت إلا العزيز الكريم! - .. كما وصف المتنبي .. فقدُ عزيز عليه بـ :

(المـــوت) نقّـــادُ علـــى كفّـــه يختـــار منهـــا الجيـــادا-

.. فأصبح لا يبقى في الدنيا إلا (الأخسُّ الأخسّي) [٢]!

أم نحن (فقط) عاطفيون نسكب على كل مَن يرحل أقداح الإطراء، ونُلبسهم أثواب المديح !

أم .. أنه يُغالبنا الجحود، فلا نعرف لصاحب الفضل فضله إلا حين تغيب شمسه! ،.. وربما أشقّ من هذا، كما قال علي الجارم :

رُب مَـن كنـت في الحيـاة لـه حربـاً شـققت الجيـوب عنـد غيابـه

و .. يبالغ أحدهم بـ :

لألفينّـك بعـد المـوت تنـدبني وفـي الحيـاة مـا زوّدتنـي زادِ

حتى قالت إحداهن لأحد الأدباء - و الذي غُيّب خلف حائط .. النسيان- :

(إرحلْ، لكي نراك!) [٣] ، وكتب - تأكيداً - عبد الرحمن الانصاري – في صحيفة (البلاد) - : "أذكر أنني قرأت مرّة أُمنية غريبة لأحد الأدباء مفادها: أن يموت ثم يعود للحياة لكي يتمكن من الإطلاع على الرثاء والدموع التي سيذرفها الناس عليه بعد رحيله عنهم" [٤].

فلنصارح أنفسنا : هل عهدنا هو (عصر الجحود) [٥]، أم، أم .. ؟!

(*) قد يستشمّ البعض .. بعض مبالغة، أو كما قال توسيديس: (الأموات.. هم دائماً موضع إطراء) .. لكن! وسوف نُسأل عمّا نسطر: أننا.. ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾(يوسف ٨١) .

(٢) أو.. على حدّ نفث البحتري :

وأصبح الزمـان محمـو لاً هواه، مع الأخسّ الأخـسّ

ولعل أسواء صور الجحود.. ما قاله "معن بن أوس" :

أعلمّـه الرماية كل يـوم فلما اشتدّ ساعده .. رماني !

(٣) .. انظر – هنا – عن (المسيطير) ما يأتي في هامش (١) ص١١٦ .

لكن هذا لا يحول .. "عن ذكر أحد محامد صحيفة الجزيرة .. ،على يدي "الثقافية" الصادر مع عدد الجزيرة (الأثنين من كل أسبوع) تكريم العديد من الشخصيات - انظر بلغراف عنهم، في العدد ٢٣٨، تحت عنوان : "تكريم الرموز في حياتهم نهج أختطته (الثقافية)"-

(٤) .. ثم عرض - نموذجاً لتحقيق ذلك - بـ (حمد القاضي) على ما لقي حفظ الله من تكريم.

(٥) وقد فندت عذري وعذر من اقتفاء هذا (الوفاء.. المتأخر) في كتابي (ديوان البيان)- ص٥٣٥ فما بعدها-

ونبّهني - أكثر- إلى هذا (الإيحاء) ما نراه بين الفينة والأخرى، .. كما حدث من تكريمٍ لأحد أعلامنا، وذلك بعد أن وُسِّد الثرى، ولإن كان هذا الفعل طيّب وجميل- كما ورد في الحديث : {إذا مات أبن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث[١] صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له} –

إلا أنها.. أو هي (أدنى درجات العرفان)[٢]، فنُقرّ : أن هُناك مَن يرحل.. فيُذكر، أو لم يُبلّغ – تجلية عنه – إلا بعد وفاته[٣]، ولعل هذه طامة عصرنا (المادي) ، الذي لا يتأثر ، ولا يُنصِفْ – غالباً – إلا بالموت!

.. وقد تكون هذه وصمة تعيبنا نحن لا عصرنا، كما قال (الشافعي) رحمه الله :

نعيب زماننا والعيب فينا .. وما لزماننا عيبٌ سِوانا

أجل.. وربيّ، أن العيب (فينا) ، و وصم هذه المثلبة على جبين المقصّر .. من أهل زماننا.. لا وقفاً على زماننا، والذي لا عيب له إلا.. (نحن)!

إذ[٤] يكفيه أن هذا القصور آتٍ من (أهله)! والأسوأ. فيمن لا يعترف بهذا والحق أبلج! - .. كما أن الباطل تلجلج -

---

(١) وفي حديثٍ يُتمّ لنا المعنى : { كل ميت يُختم على عمله، إلا المرابط }.

(٢) وهذا النعمان بن المنذر- الملك العربي- وقد أتاه وفد من العرب، فيموت منهم رجل قبل أن ينال رفده، فلما أعطى كل وافد عطاءه، جعل عطاء ذلك الميت على قبره، حتى جاء أهله وأخذوه، فيقول النابغة الذبياني:

حَباءُ شقيق فوق أحجار قبره .. وما كان يُحبى قبله قبرُ وافد

وقد صدق النابغة في قوله : " وما كان يحبى قبله قبر وافد"، ولم يقل : " وما كان يحبى بعده". وقد مرت عصور على قول النابغة، فرأينا الأموات من العلماء والأدباء والشعراء في عصرنا الحاضر، يُكرّمون بعد موتهم.

(٣) حتى قال المتنبي - مُبالغاً .. وفي عهده - :

إنّا لفي زمن ترك القبيح به .. من أكثر الناس إحسان وإجمال

(٤) إذ : حدث ماضٍ، أو لـ (التعليل).

لأن.. في ذلك حشفاً بالجحود، وسوء كيلة (عدم الاعتراف بهذا)[١]..

فـ بالله: .. أما كان أو الأجدر فعل هذا. أي (إبراز مآثرهم وجهودهم، عرفاناً لهم) وهم أحياء، حتى يُقتدى.. بهم، بل ولكي يروا نتاج صنيعهم بأمِّ أعينهم؟!

استدراكاً .. أو حتى لأُنعمم: فقد لا يكون القصد في التأبين بعد الموت، هو فقط من باب الوفاء المتأخر، وذاك لسببين (وجيهين):

الأول: أن هذا ما فعله القدوة: (الصحابة) رضي الله عنهم، في ذكر محاسن من رحلوا- كما سيأتي ص١٠٦ فما بعدها-

والآخر : استئناساً بقول ابن مسعود - أو عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما-: (لا يُؤمن على الحي الفتنة)، وإن كان في فحوى الحديث عن الثناء: { تلك عاجل بُشرى المؤمن} ، ما يقطع دابر مثل هذا الظن.

لكن.. على عاتق المتلقي التوفيق بين المعنيين فلا يغفل الأول، ولا يتنازل عن .. بلوغ الثاني[٢]، - أو قل: لا يتجافى عن الأول، ولا يجفو حق الثاني-

فإني وجدت أن من حق هذا الجيل (توثيق) صور عن أولئك الأفذاذ، الذين ملئوا دُنيانا علماً وعملاً، ونفعاً للبلاد والعباد في حاضره والبادِ.

ثم/ الأدنى، من هذا، هو في الجحود المستمر أي : (عدم الوفاء بعد الوفاة) وهو ما قد يغمر كل تلك السوءات: في(انتقاص..): من بلغ الإ ربة من الحمد،

---

(١) انظر ما تقدم – في ثنايا: ص٢٨-

(٢) وسئل المنصور أبو جعفر .. قيل له أين منك العز؟! قال : سلوا عني بعد موتي بمئين (مئات السنين) أما الآن فلا.. ولكن أؤدي ما عليّ.

واستحق إثره المجد! وعلى هامتهم: الصحابة – رضي الله عنه- ومن تبعهم بإحسان.[١] .. أجل :

فلن يموت إنسان ما حيي الذكر..

كذا قال (أبو فراس)، وهذا - فقط - في خُلد من يحفظون **(الحفيظة والجدُّ..)**.

.. لا أعني أولئك الذين لا يذكرون معروفاً ولا يشكرون مطلقاً[٢]! وأسوتنا ﷺ يقول - مُعنفاً -: { لا يشكر الله من لا يشكر الناس}.

.. وهذا قد يكون أقل درجات (الشكر)، التي رتّبها (علي بن موسى):

" الشكر ثلاثة أضرب: شكر بالنية، وشكر باللسان، وشكر بالعمل، فمن أستكمل هذه الثلاثة فقد بلغ غاية الشكر".

هل أقل.. أو يُستكثر عليه(الأسطر) التي تُملأ.. عنواناً للشكر[٣] أو.. من جعبته ما عبّر الشاعر :

لو كان للشكر شخصٌ يبين إذا ما تأمّله الناظر

---

(١) .. انظر (حياة الصحابة) للكان دهلوي، و(فضائل الصحابة).. وكذا (تهذيب الكمال)، و(التقريب) لابن حجر، أيضاً كتاب (اللباب) و (صفوة الصفوة)، ومن قبل ما فعل الذهبي – رحمه الله -، بـ كتابه الذائع (سير أعلام النبلاء)، .. الذي فيه- مع ما فيه من سير أولئك الأفذاذ، / حِكمٌ وعبر، وروايات لو قرأها المسؤولون في العالم الإسلامي من ساسة وعلماء ووزراء لأستفادوا منها تجاربا وحِكماً على ما عندهم! - وكذلك (آداب الملوك) للثعالبي-

.. أيضاً.. مؤلفاتٌ مماثله حديثه: (الأعلام) للزركلي، و(رجال حول الرسول) خالد محمد خالد، و(رجال من التاريخ) لمحمود ياسين.. الخ.

(٢) ثم إن (الشكر) ليس مُكلفاً إلى الحد الذي يُثقل الكاهل حمله، لقوله ﷺ : { من قال جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء }، وحديث { .. فإن لم تستطيعوا أن تكافؤه فادعوا له} أو كما ورد.

(٣) فـ (الشاكرون) هم: أطيب الناس نفوساً وأشرحهم صدورا وأقرهم عيوناً. فإن قلوبهم ملأنة من حمد الله والاعتراف بنعمة والاغتباط بكرمه والابتهاج بإحسانه، والسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره وحمده ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[الأحزاب٣٥]

لمثّـــلته لـــك، حتـــى تـــراه لـــتعلم أنـــي أمـــرؤٌ شـــاكر!

وهذا .. لعلّه جبراً للقصور في الأشياء الأخرى - من أدوات الشكر - إن كان هذا القصور حادثاً لا محالة..

فإن لم تجد عندهُ أحد الثلاثة - التي تقدمت- فإن الجحود والنكران يعيش في مخيّلته . بل ويعشعش.. ربما!

وحتى .. لا يصطبغ (مجتمعنا) بالجحود أو يُوسم به (النكران) – كما لمزنا[1] أعلاه-، فما الإعتراف بهذا إلا كأوّل ناجعٍ لهذا المعضل .. ثُم بما أشار له الحديث: { الكيّس من دان نفسه} أي: يتّهم المرء نفسه دائماً حتى يسموا بها.

أو نُسرف مع من قال :

(أصبحنا لا نعرف كِبارنا.. إلا حين يموتوا)، والقصد أي : حين نُأبّنهم، و.. لكأن هذا التأبين هو فقط : تذكير للآخرين بهم!

- وإن كان في ما سيأتي ص١٢٥.. شرح كافٍ لأحد أسباب هذا المنحى-

أو كأنهم – وقبل وفاتهم – تاهوا في عالم آخر، أو خلف ذاكرة النسيان! .. وهذا خلاف ما وُصف به المؤمن :

أنه: كـ (النحلة)، تأكل طيّباً، وتعطي طيّباً، وإذا وقعت على زهرة لا تُتلفها، وهكذا .. فإن من الناس من تشرئب إلى قدومهم الأعناق، وتشخص إلى طلعاتهم الأبصار، وتحييّهم الأفئدة، وتُشيّعهم الأرواح، لأنهم إمتلكوا القلوب بحسن صنيعهم .. فأصبحوا (محبوبون)[2].

---

(١) حتى قال .. قائل : (كُنّا نتعامل بالدين، فلما ضاع الدين، أصبحنا نتعامل بالمروءة فلما ضاعت المروءة صرنا نتعامل بالحياء، فلما ضاع الحياء أمسينا نتعامل بالعرف، فلما ضاع العرف لم نجد شيئاً نتعامل به)!

(٢) الحب نعمة قلَّ من يحوزها – من الخلق - ، وهي آتيةٌ غالباً بفعل – لا جِبلّةً -، فإن المرء.. ومتى ما فعل الأسباب، التي أُولاها تحقيق محبة الله، للحديث : {إذا أحب الله عبداً حبب إليه خلقه} ، ثم بالقرب من الخلق والإحسان إليهم وحُسن صنيعه بهم، نال مقام (الحب) من لدنهم.

- وإذ أحـــب الله يومـــاً عبـــده ألقـــى عليـــه محبَّـــةً للنـــاس-

.. في جلّ خصالهم، فما البال والحال.. و.. و، فإذا مات هؤلاء، ماذا يُصنع -إثر هذا- أهلُهم وأحبابهم .. وأولئك من وطّنو الحياة بهم و.. وَطَنوها إثر أنفاسهم[١]، وألِفوا العيش في كنفهم، وقضوا غالب أعمارهم في أجوائهم.. و .. و..

فتركوا.. في تلك (الأفئدة) فراغاً لا، ولن يملأه إلا مثلهم، ولا يسعه إلا ثقلهم، ولا .. الخ- قال أحد الفلاسفة: (إن هناك من يذهب .. فتذهب السعادة خلفه)!-

وحتى لا يكون في قولي تنظيراً، أو بعيد عن التطبيق ما أدعو له، فقد ألفتني - ما تقدم- إلى كشف هذا الصنيع[٢]. مما يستجرّني - كما سيأتي/ مطلع ص١١٥- إليه هذا (الثناء) لأثني به .. عن شخصيةٍ ملئت حياتنا (عمّتي):

أو قُل لأُثري عنها - كـ (وفاءً).. لمن يستحق[٣] - عن بعض ما يجيش لها في صدري، وذاك بما كتبته تحت عنوان:

(عمّتي/ حين غشاها الألم)[٤].

و.. من داعي العنوان : (سبب) ما صيّرني أن أُثرى- في الكتابة - عن قبلة قلوبنا (ابقاها الله) وأمتعنا بها.. ورزقنا برّها، ولعل في هذا رداً (بسيطاً) على من ينفي عنّا الوفاء، كما في سلح الروائية (أحلام مستغانمي): " وحدنا أيها العرب

(١) فما (الروحُ) إلا ماءٌ .. والجسد وعائه .

(٢) أو هو شفيعي : كتاب (في دائرة الضوء مبدعون.. ملهمون) لـ " محمد الخجَا ".

(٣) فإن هناك أشياء تضمحلّ، إن لم تُسقى بماء الوصل، أو الاعتراف - بأثرها- أو .. حين يعتادها المرء، فلا يجدد مسلك ماء حياتها!

(٤) نشرت المادة - في الجزيرة ، عدد ١٢٥٤٧ ، تاريخ ١٤٢٨/١/١٦هـ

ننسى مُثقفينا في حياتهم[١].. ونكرّمهم عند موتهم!"، وقد أضيف : وفُضلائنا، وشريحة عريضة ممن لهم الحق في الوفاء، فأقول - بحقّها - :

مستسمحاً القارىء.. بإيراد (صدر) تلك المادة كيف لا!، وقد خرجت من أعماقه[٢]، كما ولا أعدّها إلا : جُزئية من حق هذه (العمّه) الفاضلة، أو لتلك التي بمكانة.. ومقام : الأم[٣] الرؤوم..، والتي جاء فيها :

((لعل أكثر الشخوص الباقية من ذلك العهد، ولا زالت بفضل الله عامرة - بارك الله فيها - .. العمّه (وشقيقة) أبي و..نورنا :

" نوره بنت محمد المطلق" - حفظها الله[٤]، .. ورعاها -

فهي - بلا شك- أقرب شخصية اليوم إلى القلب، ممن بين ظهرانينا ترفل، فلا غرو أن أكتب عنها، ولما لها من مكانة ومنزلة، بل - أو ربما-: أجد من العجيب أن لا أكتب عن شيء مما لها لدينا! بما قد يؤول إلى دينٌ علينا.

وليس كثيراً إن قلتُ أنها توازي (الأم)...

.. وما تفعل الأم غالباً مع بنيها، إلا وفعلته معنا، فهي تُلاطف وتحب، ..

---

(١) .. ولعل مادتي عن استاذ جيلي(د. حسن الهويمل) - الجزيرة عدد/ ١٢٥٠٨- حال مُغادرته بيته: (النادي الأدبي)، تنفي عن قلمي هذه التهمة.
وكذا مادتي.. في الأديب العزيز (حمد القاضي)- آن تركه "المجلة العربية" .. في الجزيرة عدد/ ١٢٧٦١-

(٢) فهي .. أبعادُ زوايا يُتم بعضها، بعضاً ..
.. وحين طُلب من شكسبير إختصاراً لأحد رواياته، قال : (لم أجد بها سطراً زائداً، أو ما يمكن حذفه)!

(٣) أو بمثابة مفرداتٍ كـ (صوره) تحكي .. ما أحسبه على لسان أحبابها تصدح...

(٤) هذه.. حال حياتها يرحمها الله، أما وقد أفلت عن دنيانا، فلعل في المادة (ص٢٩٧) وما بعدها كافٍ عن عمق ما تركت!

- في أســـاريرها حـــديث طريـــف لا تعيـــه في الـــودِّ إلا القلـــوب-

كما.. وبك تحفل ولك تبجّل وعليك تقلق ولك تأمل، وبك تُرجّي، وإليك تحفد، ومعك ترفد، ومنك تنتظر (وهذه الأخيرة.. قليل ما تبديه)!، سوى انتظار مأمل الوالد.. بولده، من نجاح وتفوّق.. يعكس للآخرين حُسن تربيتها.. لك.

بالأمس، وبالأمس فقط هوت قلوبنا من أماكنها، وزُلزلت أحاسيسنا من ثباتها، وليس هذا بكثير، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري قوله ﷺ :

{ .. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب}[1]، وقد قال الله في أصحاب الكهف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (الكهف ١٤) ، أي:

لا لا يُفجعوا، أو يروّعوا[2]، أو - كما يقول بعض العوام-: وضعت يدي على قلبي (لكي يتحسس هل: سقط من مكانه)!، فجمعت جمّ من عوآطفنا لمن مناشطها إليها، حين:

فِقنا على (طارقٍ)[3] ألمّ بها، وبكل أمالنا..، بعد (سدرنا) وانغماسنا بالحياة والغوص في حمأتها كدًّا للعيش، أو للرهق إثرها صعوداً[4].

---

(١) .. وهو: موضع - قُرب مكه-، وهذا .. بعد ما لقي ﷺ من أهل الطائف .. ما لقي.

(٢) وقال مولانا عن كليمه موسى: ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ القصص٢٩- .. وفي موضع آخر قال : ﴿ فخر موسى صعقًا ﴾ ، .. وانظر ثنايا هامش (١) ص٢٩٣-

(٣) وقد عللت عن منافع (المرض) – في مطوية (محاسن المرض الغائبة):

أن في مرضك.. أو من محامده عليك/ يُفيق أحبابك السادرين بالدنيا عنك إلى الإلتفات إليك، والنظر في مدى ثقلك عليهم، وكذا (الفراغ) الذي قد تتركه - بعد رحيلك- لديهم!!

(٤)مع أننا قل ما نبلغ غير ما كُتب لنا فيها-! ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (الانشقاق ٦) .

لنتوجه بهذه الإفاقة تلقاء: أو : لبؤرة الـ .. (نور) الكان يضئينا ، وروحٌ لا تكلّ عن الروف بنا، ونفس مَلئت منّا النفس والأنفاس - والإحساس- غدّوا ورواحاً .. ومن أمتعتنا وأُمتعنا بها عقوداً عِذابا (حفظها الله).

فـ هل حقاً لا.. نقول فيمن نحبّ إلا حين تغيب تلك الروح - لا قدر الله - أو نوقف القول.. (الفصل) لذاك الخطب!

ألا ويح قلوبنا على هكذا جفاء.. أو قل عن درجةٍ .. من الـ (وفاء) المتأخّر!

ثم.. وماذا عساها تُعزّى بعد - لا قدّر الله-: بُعدها.

.. أجل :

فهذا.. عبيرٌ عن الجميع، أو الجموع[1] التي عرفتها، ومن تبكي إلفتها- الخ-

.....

(١) الجموع أذكرها حتى لا أُسرف في الظن.. - والفرق بينهما : أن الجميع: الكل، والجموع: تعني الغالب-

وأعود بعدها لمنوالي بهذا (الفصل) فأقول :

.. ولعل آخرهم أي أولئك الفُضلاء: تأبيني - (المضمّن) بمادتي: (أفكار.. تستحق الإبحار) لـ: (رجل الخير)[1] بالكويت، الشيخ: (عبدالله المطوع).. - صحيفة (الجزيرة) عدد/ ١٢٤٢٥ -

أمّا قسم (الأحباب)، فأُطّره بـ : " إني لأعلم أن الكتابة عن أشخاص خواصْ قد لا تستهوي الكثيرين لقرائتها، لكن العبير عن هذا "الخاص" آتٍ من تأثيره في الكاتب، أو لما علّم به. فكان القول فيه - مع الوفاء - أقل حقوق المعلّم.. المبرّز (ولو) في إبلاغ (هذا الكاتب) مرتبة امتلاك القلم السيال".

فهل يُستكثر لذلك الشخص ما قد يُقال فيه إظهاراً لمحاسنه ، أو حتى - كما تقدم ص ٣٦-: من قبيل الشكر لصنائعه!

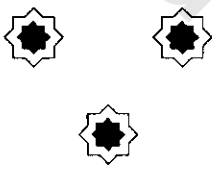

(١) وقد (أعدتها) هنا إفراداً بمادة مستقلة، إكراماً وتقديراً لشخصه، وأثره (الكريم)- أنظر/ ص٢٢٥-

وبعـدها :

.. فما تقدم: مجرد أسئلة، تختفي غالباً أمام ماديّاتُ الحياةِ التي لا نفيق لها إلا حين نُصدم برحيل غالٍ، وقد كان من قبلُ ملء السمع والبصر .. أو ذاك الذي يوافقه معنى ما قيل: (إذا حضر لم يعرف، وإذا غاب لم يُذكر)..

سوى بغياب: الموت!.

وحتى لا يُظنَّ بي أني أُغالي بهذا (المنحى) أو أُزجي جدلاً، أُعيد بـ :

كم من شخص لا نعلم عن طيبته، وحبابته، وكرمه إلا حين يرحل[1] ، فيردد في ذاتهِ صاحبُ الحاجة أو من ضامته أحوال الدنيا: (ليتني عرفته قبل أن يرحل.. كي يفرّج لي)!

.. ولعلي هنا أطرح (نماذج) من نالوا فضل إحسان ما أحسنوا، ثم أُتبعهم: من خآصّة الأسرة ، والذين أدركوا – بفضل الله - .. بأنفسهم مقام الحمد ودرجة الثناء على إثر ما إثّروا.. وعلى ما في القلوب من صيتٍ تركوا.

أوهم. (فِئاتُ) من أبّنت .. على ثلاثٍ[2] :

الأولى : شخصيات (عامة) .. مِمَن أثّر بالمجتمع قاطبة – كـ (ابن باز)، و (ابن عثيمين)، و(الطنطاوي)-.

والثانية : من أثّر بقسم من المجتمع- كـ (عثمان الصالح) و (د. الزامل)-

والثالث : وهو على قسمين، الأوّل : من أثّر بي شخصياً[3]- كمقام والدتي الثانية الخاله (عائشة العبد العزيز)-

و: الأخر: من أثّر بمجتمعي الخاص، وأخذ مكانة من القلب - كمقام الوالده (مدينة) رحمهم الله جميعاً-

---

(١) .. انظر – مثلاً – ما يأتي ص ١٢٨ مع هامش (٢).

(٢) ... وانظر الفصل الثاني: ما يأتي ص ١٤٣ فما بعدها.

(٣) – كما سيأتي .. عَرْضاً ص ١١٥-١١٦ .

وأُعيد تذكيراً : أن هذه (مقالات) غالبها - بفضل الله- لقي طريقةُ للنشر، وبعضها تآه إمّا قبل [١] أن يصل، أو بعد.. انصراف مأمل النشر في (خضم) المناسبة.

لافتــه :

و للتو.. إنتهيت من إعداد كتابي (هذا أبي.. الشيخ علي) الذي أدعو الله - وبعد أن يكون على الوجه الذي يرضى به عنّي-: أن يجعله من البرّ الخالص، مع أمل يحدوني أن يُنتفع به، وذاك كي يكون (نواة) تنمو في أهل عصرنا[٢] من أن يقولوا للمُحسن: (أحسنت)، فهذا أدب المولى لنا من قبل: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾(يونس ٢٦) .

(١) بخاصة من المواد التي حاولت فأرسلتها لأكثر من دورية ، كمادة (أحمد ياسين).. لكن للأسف لم تجد طريقاً يبثَّ من خلاله.. بأحدهم، أو (نوراً) تشعُّ به أسطري مكاناً قِبله .

- .. انظر هامش (*) ص٢٠٥-

(٢) .. بل لا أُماري، إن قلت أنه – أي (الكتاب) – بفضل الله: قد استحثّ غالب من طالعوه، بالإقتفاء إثر فعلي، أو تشجيعاً.. ليمضوا قدماً في ما قصدوا.. ليكتبوا عن أبائهم – (ولو): في داخل نطاق أهلهم-، لا أقول بهذا حمداً لصنيعي، بل إثباتاً على أن سنُّ الخير يُغري .. من به (خير).

باب : هل للموت .. علامات؟ (*)

بـدءاً : نُجيب بـ : نعم، وبخاصة من تجاوز عمرهم المعتاد، الذي أومأ إليه قوله ﷺ: { أعمار أُمّتي[٢] ما بين الستين إلى السبعين } [رواه ابن حبان].

أي ليس له (آن) محدد أو سن معين، أو عُمرٌ تقريبي، إنما هي علامات ظاهرة تأتي غالباً مع تقدّم (العمر).

.. كذا نظم أبو العتاهية في هذا المعنى، فقال:

إذ قضى (القرن)[٣] الذي أنت فيه ... وخُلّفت في قرنٍ فأنت غريبُ

.. حتى يقول أحدهم: ولم يبق منّا سِوى القليل ما بين عاجز ومتأهبٍ للرحيل

ولقد أكد الشاعر ذلك بقوله :

إذا ما المنايا أخطأتكَ وصادَفت ... حميمك فاعلم أنها ستعودُ

حتى يُنبيء - عن صدق هذا- المُفتّى (محمد بن إبراهيم)[٤] :

إذا الرجال ولدت أولادها ... وبليت - من كبرٍ - أجسادُها

وجعلت أسقامها تعتادها ... .. تلك زروع قد دنا حصادها

وأبلغ مِمَا تقدّم قولٍ لسفيان الثوري[٥] - رحمه الله -:

(*) مادة مستقلة (مُشتقةً من كتابي: هادم اللذات ص٨٦ فما بعدها)، .. بل إن صحيفة (الجزيرة) حفلت بها (مشكورة)، وخصّتها بنصف صفحة.. (عدد ١٢١٣٣) - في ١٤٢٦/١١/١٥هـ-، وأعيدها (إثباتاً) .. لشديد عُرى ما بينها وبين أبعاد هذا الكتاب.

ف/ لابد من إيراد (هذه المادة) للتذكير، وتعميماً للنفع وهكذا أوصى أسلافنا.

و.. كذا: لما لبعض زواياها من تقريب أحسبه يتمم معانياً عرضت لبعضها وأعرضت عن بقاياها.. لـ : يستدركها القارىء الفطن.. بنفسه.

(٢) وقال ﷺ - في إيمانةٍ - : { أعذر الله إمرء أبلغه الستين من عمره } - وفي دراسة حديثه: أن متوسط عمر الإنسان ٦٠ سنة-

(٣) القرن: مئة عام، قال تعالى ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان ٣٨) .

(٤) .. ابن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن (ابن) الإمام المجدد: محمد بن عبد الوهاب - مفتي الديار- وأحد أعلام عصرنا الفقيه والمحدث والمفتي (١٣١١هـ/ ١٣٨٩هـ) - رحمهم الله جميعاً-

(٥) وهو : من كبار التابعين - ﷺ -

(مَن بلغ سن رسول الله ﷺ .. فليتخذ لنفسه كفناً)[١].

وبسط ابن الجوزي في " صيد الخاطر " : (إن المرء إذا جاوز "السبعين" جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل، فيوفّر نفسه إلا من تعليم يحتسبه أو تصنيف يفتقر إليه، فذلك أشرف العُدّة للآخرة.)، حتى قال : (وقد بلغ جماعة من العلماء سبعاً وسبعين سنة، منهم أحمد بن حنبل، فإن بلغها.. فليعلم أنه على شفير القبر، وأن كل يوم يأتي بعدها مستطرف).

وأما الثمانين فمن يبلغها.. فقد سأم الحياة وملّها ، وهي نذير الموت..).

- و.. ربما عنى ما قالهُ زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة، ومن يعشْ ثمانين حولاً.. لا أبا لك[٢] يسأم-

و.. يُتبع ابن الجوزي : (فإن تمّت له الثمانون .. فليجعل همّته كلّها مصروفة إلى تنظيف[٣] خِلاله وتهيئة زاده، وليجعل الاستغفار حليفه والذكر أليفه).

-فـ.. لِلهِ درّ[٤] الشّيب من واعظٍ وناصح، لو حظي[٥] الناصح-

.. وليأخذ ممن تقدّمه عِظةً، قال بعضهم : (السعيد من وُعظ بغيره)!

---

(١) قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتى عليك؟ قال : ستون سنة. قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل : إنا لله إنّا لِلهِ راجعون.

قال الفضيل : أتعرف تفسير قول : إنا لله وإنا إليه راجعون؟! فمن علم أنه لِلهِ عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه إليه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول ، فليعدَّ للسؤال جواباً، فقال الرجل : فما الحيلة، قال : يسيرة . قال : ما هي؟ قال : تحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي، أُخذت بما مضى وما بقي والأعمال بالخواتيم.

(٢) .. تُقال: من باب التعنيف، أو التعوّذ! من فعل الشيء.

(٣) حتى.. نصح (ابن جبير) :

وأسوأ الناس تدبيراً لعاقبةٍ من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

(٤) هذه: (لِلهِ درّ) من باب الحمد، أنّ/ ما أعزّ ذلك (الدّر) أي: الحليب الذي به نميت.

(٥) أي : لو حظي الناصح بالقبول.. أو لقي أذن تسمع، وقلباً يعقل لما يقول!، أو ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾(ق ٠٣٧) .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (آل عمران ١٣)
أي لأصحاب البصيرة: قبل أن يلقى الردى.. في (نفسه)، فهنا- وكما قال الحكيم لقمان: (لا غائب .. أقرب من الموت)! -.. لا مفرّ منه، ولا بعذر: أولويات العمر! - أي أن المرء لا زال في بواكيره -

أو كما قيل : (إن الموت تخطاكم لغيركم،وسوف يتخطّى غيركم إليكم).

.. حتى يُردد أحدهم – حال .. بلوغه هذا السّن - :

قالوا: أنينك طول الليل يُقلقنا! فما الذي تشتكي؟ قلت: الثمانينا

أي : أن أبناء الثمانين يُشغلون من حولهم بالأنين، وقد لا يكون غالبه أنين الألم، بل توجّلٍ .. لـ دنوّ الأجل!، فهو جدُّ قريب منهم بخاصة حال تجاوز هذا العُمر. وكذا أتى .. قول الآخر :

إن (الثامنين) – وقد بلغتها- .. قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

بل هذا (العمر) – أو ما بعده - .. يبلغ بصاحبه الملل، كما هو الحال عند (لبيد) رحمه الله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف (لبيد)!

.. وهذه هي العلامة (الظاهرة) ، أو المقروءة بالسّن.

أما علاماته الأُخرى، فهي الظاهرة بالجسد، والتي عبّر عنها الكثيرون، كما جاء في (إرشاد العباد) اص/٢]:

" أنّ يعقوبٍ عليه السلام قال لملك الموت : إني أسألك حاجة؟ قال : وما هي ؟ قال : أن تُخبرني إذا دنا أجلي، وأردت أن تقبض روحي؟ فقال : نعم، أُرسل إليك رسولين أو ثلاثة، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت، فقال : أزائر جئت أم لقبض روحي؟ فقال : لقبض روحك، فقال : أو لست كنت أخبرتني أنك ترسل إلى رسولين أو ثلاثة؟ قال : قد فعلت ، بياض شعرك بعد سواده، وضعف بدنك بعد قوّته، وإنحناء جسمك بعد استقامته، هذه رُسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت".

وأكّدها[١] بعضهم: بـ (إن للموت علامات، فانحناء الظهر، وسقوط الأسنان، وبياض الشعر .. أبلغُ علاماته)[٢]، وهذه الأخيرة عبرّ عنها: (توفيق البكري) - رحمه الله تعالى - :

أشعرةٌ بيضاء[٣]! ، أم أوّل خيط الكفن ؟

وقد قال المولى تعالى - على لسان زكريا عليه السلام -: ﴿.. رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ۝﴾ (مريم:٤) وقول زوجة إبراهيم : ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[٤] [هود٧٢] ، .. أي : كـ (عوارض) له، قال البهاء زهير:

أتريدُ في السبعين ما قد كنت في العشرين فاعل؟!

فـ : حينها لا مفر ولا مهرب عنه، قالت (أم السليك) :

---

(١) الأديب (عبدالله الجعيثن).

(٢) .. حتى سُئل أحدهم – وقد هرم – كيفك؟ فقال : أما الاثنان فقد آلن لأربعة- العينان (مع النظارة)-، والاثنان أصبحن ثلاثة – أي القدمين (مع العصا)-، وأما الأسود فقد إبيض أي (الشعر)-، وأما .. الجميع فقد تفرّقوا، أي (الأسنان) ..!!

(٣) .. واقرءوا معي ما بدا في نفس الشاعر (دعبل بن علي الخزاعي) من ألم، وقد لاح الشيب رأسه:

لا تعجبي يا سلْمُ من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(٤) وفي قولها - بأية أخرى قوله تعالى ﴿وهذا بَعْلِي شَيْخاً﴾[هود٧٢]- عن عدم قدرته على أن تحمل زوجته[*] منه - و:﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[مريم٤] دلالة الهرم، .. و : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة٨٥] لمن قرب أجله، و﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق١٦] بسرعة الموت، و ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[ق١٩] حضور الأجل.

- (*) وبالمناسبة ليس تعجّبها لقدرة الله، حاشاها ذلك، لكن.. وفي هذا السن!، كذا ظاهر قصدها-

كـــــل شـــــيء قاتلـــــك حـــــين تلقـــــى أجلـــــك

وصدق الله تعالى .. حيث قال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء ٠٧٨)

- قال أُمَيّةَ بن أبي الصلت :

يوشـــك مـــن فـــرّ مـــن منيّتـــه في بعـــض غرّتـــه[1] يوافيهـــا-

.. فلا ينفع وقتها الدواء، ولا المداوي :

قـل للطبيـب تخطّفتـهُ يـدُ (الـرّدى)[2] مـن يـا (طبيـبُ) بطبّـه.. أرداكـا!؟

ألا .. فقل: الذي لا (علاج) له!، كما في حديث {لكل داء دواء، عَلِمهُ من عَلِمه وجَهِلهُ من جَهِله، إلا السّام}- أي : الموت -، قال (أبو ذؤيبٍ الهُذلي) :

وإذا (المنيـــةُ) أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل (وقيّـــةٌ)[3] لا تنفـــع

---

(١) أي : غفلته- قال تعالى ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(الواقعة ٠٢٤) أي (أغفلهم عمّا ينفعهم).

(٢) أي : الموت .

(٣) الأصل في البيت: (تميمة)(*)- لكني غيّرت باللفظ.. فقط- وهي: ما تعلّق عند الجاهلين.. وقاية للعين، وقد أبطلها الإسلام.

- (*) قال معالي الشيخ (عبدالله المطلق) :

" تعليق التمائم من عوائد الجاهلية التي نهى عنها رسول الله - ﷺ - وحذر أمته منها أتخاذ التمائم التي يعتقد بعض الناس أنها تدفع العين وتمنع الضرر، كالقلائد والخرزات التي تُعلّق على الأولاد والبهائم بقصد دفع العين والحسد، لأنها من جنس الشرك بالله تعالى الذي مقته الله وجعله سبباً في الحرمان من الجنة حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ المائدة:٧٢، وقد روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : {من علق تميمة فقد أشرك}. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجال أحمد ثقات.. الخ-

لكن نقول لمن بلغ تلك (السّن): أنقذ نفسك من النار، وتمم إحسانك[١]، وأتبع الخير خيراً، لتبلغ (حُسن الخاتمة)[٢] بإذن الله تعالى.. الذي وعد بـ: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (يوسف ٥٦)

.. إن الملـــوك إذا شـــابت عبيـــدهم عتقـــوهم يـــارب عتـــق أبـــرار[٣]

وأنـــت يـــاربّ أولى بـــذا كرمـــاً قد شبتُ في رقِّك فاعتقني من النـار-

فإن من عظيم النعمة (أن يُسخّر الله تعالى للعبد من يعظه)، ثم يُعطى القلب العقول المدرك للنصح .. الذي يلهمه – بإذن الله – ويدلّه إلى : التوبة النصوح، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (النساء: ١٧-١٨] .. ومن مفاتيح[٤] هذه التوبة (النصوح)[٥] - أي الصادقه، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴿٨﴾ ﴾ (التحريم ٠٠٨) -، أو قل ركائزها:

---

(١) يقول المهتمّون بألعاب (القوى): إن الخمسين يادرة.. الأخيرة هي التي يعطي فيها المتسابقون أقصى ما عندهم - أي (من جهد)-

(٢) .. هناك رسالة لـ (د. عبدالله بن محمد المطلق) بهذا العنوان- .. وقد أخذت منها (بتصرف): جليل ما يأتي ص ٧٣.. فما بعدها -

(٣) وردا على لسان شاعر قديم – من اليمن -

(٤) .. فما من شيء أعظم من استصغار السيئة، كما : ولا أحبط للحسنه من العُجب بها!

(٥) ونؤكّد على سلامة الفطرة، بقول (سنيكا): " عندما يتوب المرء، يكاد يكون بريئاً " .

١) الإخلاص فيها لِلهِ تبارك وتعالى ، فـ { الندم توبة} - كما في الحديث -
٢) امتلاء القلب من محبة الله .
٣) المجاهدة للنفس.
٤) مصاحبة الأخيار.
٥) الدعاء .

والحديث يحثّ بـ: {الكيّس من دان نفسه[١] وعمل لما بعد الموت} ودان نفسه: أي اتهمها[٢] ، إما بالتقصير أو بالإسراف في التمادي!

ثم.. ولا تقل إن بقى بالعمر بقية[٣]!، فمن الآن (أي ساعة مطالعتك لهذا) - وبلوغك هذه التذكرة- يبداء .. عُمرك (الباقي)!

.. وقد حذّر المولى سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزمر ٢٢).. نعم هذا وربّي.. السبب في كراهية الموت:

إلى الله نشكو (قسوةً)[٤] في قلوبنا ... وفي كل يوم ناعي الموت يندبُ[٥] -

و(الناعي). من : النعيّ، و هو: ناقل خبر الموت.

- حتى قال مالك بن دينار : (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة[٦] القلب!)، و.. استطراداً :

---

(١) .. وحبيبك ﷺ - الذي غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخرّ - .. يدعو، ويقول (مُعلّماً): { اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره..} رواه مسلم.

(٢) والعجيب: أن عقلاء البشر يُقرّون بهذا، قال (وليم جيمس): ضياع المرء يكون في أمرين: عشق الأماني وتسويف في الأعمال.

(٣) حقيقة : يُلام كثيرون في تحوير فهم (إن كان في العمر بقية)! وما البقية - لمن وعى - تبداء/ إلا وقت .. وحال بلوغك هذا (النصح) فإنه : قد بداء الباقي!
ولهذا كان معاذ بن جبل - ﷺ - يقول لإبنه : (يا بني إذا صليت فصلِ صلاة مودّع لا تظن أنك تعود إليها أبدا).

(٤) .. ممن وصف القرآن صاحبها بـ ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (القلم ١٣) ، فلا يفيد معه النصح ولا تنفعه الموعظة.. كحال.. من : ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحديد١٦] بخاصة مع تراكم المعاصي! فيُمسي كما في الحديث: { كالكوز مُدَخّيا، لا يعرف معروفا ولا يُنكر منكراً } ، فـ: (قسوة القلب) هذه، تحتاج إلى، مادة مستقلة .. أفردت لها في كتابي: (أفكار تستحق الإبحار)- وانظر (تقريباً) لهذا ، .. في هامش (٢) ص ٩٤-

(٥) محمد بن عثيمين – رحمه الله –

(٦) .. كما وصف حال (قاسي) القلب المولى في قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾[القلم١٣] و(عتل) : أي : قاسي .. غير منقاد للحق.

فقد اقسم المولى بنبيّه، فقال في قوم : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] [الحجر٧٢] - بخاصة: مَن ﴿عَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان٢١].. -

فإن هناك -حفظنا الله-: منَ يقسوا[2] قلبه، فلا يعود لربه! أو.. لا يفيق (بعدها)إلا وهو في قبره!

وذاك لإفراطه في الرجاء/ لا يعمل .. ولا يبذل.. ولا .. الخ! فـ .. آل بحاله، أو إنتهاها إلى - كما في الحديث -: {.. تمنّى على الله الأماني} ، فيؤول إلى ﴿لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر٢٤] .. ولا ساعة مندم!، قال الأديب (عبدالله الجعيثين): " إن المَوت لا يتجاهله إلا أحمق! وهل هناك أشد رهبة للإنسان من رهبته أمام الموت؟ موته هو .. أو موت أحبابه؟ وهل هناك أكثر إثارة للعواطف وحرثا للمشاعر وجرحا للوجدان وتجرحا للإنسان وهزا عنيفا للقلب والعقل معا من (الموت) نفسه "، ألا .. فبادر كما يقول (بشار بن برد):

بكّـرا صـاحبيا إن أردتمـا الـنجح ... إن ذاك الـنَّجحُ في التـبكير

وفي الحديث : { بورك لأمّتي في بكورها } .

.. وكم أجاد وأحسن الناظم بهذا التمثيل الغزير معنا :

إذا أنت (لم تزرع)[3] وألفيت حاصدا ... نـدمت علـى التفـريط في زمـن البـذر!

لأن أيامنا هي عمرنا، كما قال (أبو الدرداء) ﷺ : " يا بن آدم إنما أنت أيام، كلما يذهب يوم ذهب شيء منك " أخرجه البيهقي.

---

(١) والعجيب ما ذكر عن أعرابي حين سمع هذه الآيه، فقال : (من أغضب المولى، حتى يقسم) وصدق الله العظيم : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر٢٨] ، وهم - كما قال ابن تيمية : (كل من يعرف قدره جلّ وعلاً).

(٢) فيصبح كـ { الكوز مُدخّيا } - كما في تشبيه الحديث له!-
.. و (انظر ما يأتي ، في ص ٢٢٢)- في توجيهٍ (د. أحمد نوفل) حفظه الله- قال الشاعر :

دواء قلبـك (خمـسٌ) عنـد قسـوته ... فـا..داب عليهـا تفـز بـالخير والظفـر
خـــلاء بطـــن وقـــران تـــدبّره ... كـــذا تضـــرّع بـــاكٍ ســـاعة الســـحر
ثـم التهجّـد جـنح الليـل أوسـطه ... وأن تجـالس أهـل الخيـر والخِـير-

(٣) بل وبمعنى أشمل، قال "برناردشو": (السعادة كالقمح: لا يستحق أن ينعم بها إلا من زرعها)، .. فإنه ليُحمد لمن أزف العمر (المعتاد) أن يجعل له ذكر – في الباقين- ليصبح عقبة حديثا يروى :

والمـرء في الـدنيا حـديث سـائر ... تقضـي الرفـاق بـه مـدى أوقاتهـا
فاختر لنفسك ما يقال ضحى غد(*) ... إذ تطلـب الأخبـار عنـد رواتهـا

قال أبو الدرداء (يابن آدم إنما أنت أيام!، كلما يذهب يوم ذهب شيء منك) أخرجه البيهقي.
- (*) كناية عن ذكر.. بعد الموت- .. حتى قال ذلك الواعظ :

إنّـا لنفـرحُ بالأيـام نقطعهـا ... وكـل يـوم يمضـي يُـدني مـن الأجـل

.. غـداً تـوفّى النفـوس مـا كسـبت ويحصـد الزارعـون مـا زرعـوا

أن أحسـنوا احسـنوا لأنفسـهم وإن أسـاءوا فبـئس مـا صـنعوا

ثم .. فقد حَكَم سبحانه بفناء هذه الدار .. للتزوّد لدار القرار.

و (الواعظ) هنا على حالتان :

الأولى : المعروفة في النُصح والتنبيه، والتذكير.. الخ

كما قال الصحابة للرسول ﷺ ، في مطلع أحد الأحاديث: (كأنها موعظة مودّع.. فأوصنا) .. الخ. - أخرجه أبو داود والترمذي -

والأخرى: موعِظة مُشتقّةً من "مشهدٍ" أمام العين وفيه عبره، كما في قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[الحشر٢]، وهو ما أخذ منه العلماء المصدر الرابع من التشريع: (القياس).

أو جليلهُ- بخاصة في هذا الزمن - في (مرض) [١] ما، بالأخص إن كان مؤذنا بموت، أي : ميؤس من علاجه!! (أجارنا الله وإياكم).

و.. قال بعضهم :

هـب الـدنيا تُسـاق إليـك عفـواً ألـيس مصـير ذاك إلى (الـزوال) [٢]

أجل .. وربي، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا[٣] فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (الأنعام ٩٤) وكذا أوجز الناصح[٤] :

(اعمل فأنـت مـن الـدنيا على حـذرٍ واعلـم بأنـك بعـد المـوت مبعـوث

(١) ولي مطوية .. في: " محاسن المرض الغائبة"، بسطت فيها كثيراً عن هذا.. ما أرجو من الله صوابه.

(٢) ويروى أن المأمون لما احتضر، سقط على الأرض وبكى، ثم قال : (يا مَن لا يزول ملكه أرحم من زال ملكه).

(٣) بل ويقين الرحيل، والإيمان فرضٌ .. بما بعده، .. كتب العلامة "أبو بكر الجزائري" - كتابه (منهاج المسلم) ص٤٤-:

(يؤمن المسلم بأن لهذه الحياة الدنيا ساعة أخيرة تنتهي فيها، ويوماً آخر ليس بعده من يوم، ثم تأتي الحياة الثانية، واليوم الآخر للدار الآخرة، فيبعث الله سبحانه الخلائق بعثاً، ويحشرهم إليه جميعاً ليحاسبهم فيجزي الأبرار بالنعيم المقيم في الجنة، ويجزي الفجار بالعذاب المهين في النار).

(٤) انظر: (حلية الأولياء) - ١٠/ ٢٢٦-

واعلم بأنك ما قدّمت من عمل محصىً عليك، وما جمّعت مَوروث)

والبيت الأخير، يُقرّبه للفهم، قوله ﷺ : { أشدُّ الناس حسرة[١] يوم القيامة: رجلٌ جمع مالهُ من حرام فدخل به النار، وورّثهُ من أنفقه بالحلال فدخل به الجنة} - الحديث -، وأوجز سلمة بن دينار: (كل عمل تكره الموت من أجله.. فاتركه، ثم لا يضرّك متى.. مُتّ ؟)[٢].

فإن الإدلاء بهذا تنبيهاً: .. على ألا نربط (الموت) بالسنّ[٣]، إذ كم من صغير .. نام ولم يُصبح، وكم يافعٍ : **(أكفانه تُنسج بالغيب، وهو لا يدري)**!.

والعجيب (الذي ليس بعجيب) ما حدّثني به أحد الأحباب:

"أن صديقاً له كان في الإنعاش وابنه مُرافقاً معه، وفجأه سقط الابن ميّتاً فلم يستطع من حوله من أطبّاء ولا أجهزتهم إسعافه[٤]، أو انقاذه!".

ومن أمثال هذا (وهي حالات لا تُحصى) جليل الاعتبار - فـ :

يا راقد الليل مسروراً بأوّله إن (الحوادث) قد يطرقن أسحارا-

قال تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴿١١﴾ ﴾ (فاطر ١١) أي : عمر الذي كان معمراً عمراً طويلا ﴿ إِلَّا ﴾ بعلمه تعالى، أو ما ينقص من عمر

---

(١) بل إن هناك - في جهنم (أعاذنا الله) - وآدٍ يُدعى بـ : " وادي الحسرات"!

(٢) حتى أولئك .. ممن لم تنتكس فطرته[*] يُقرّ بهذا، قال صموئيل جونسون: (كلما كان الرجل فاضلاً.. قلّ خوفه من الموت)، وأكّد (فورد) : الأستقامة أثمن جوهرة وأغلى جوهرة، يحتفظ بها الإنسان.

(*) والفطرة هذه.. هي التي ألهمت خديجة- رضي الله عنها- في أزرها للرسول ﷺ في مطلع البعثة، بقولها: (كلا لن يخزيك الله أبداً، إنّك لترحم المسكين..) الخ.

(٣) **ذكّرتني.. وأنا أركض أنـي من تراب راكض نحو تـراب**

فـ.. الحياة صحيح أنها متعة، لكنها – أي المتعة- لا تنقضي حتى يوسّد الإنسان في قبره، وهناك كثر يعنيهم قول الشاعر : **فما قضى أحدٌ منها لبانتـه ولا أنتهى أربٌ إلا إلـى أرب**

(٤) .. وتذكرت قول أبي العتاهية - في علي بن ثابت – :

ولم تُغن أجنـاده حولـه ولا المسرعـون إلى نصـره

الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر كالزنا، وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذُكر[١] - والله أعلم - أنها: من أسباب قِصر[٢] العمر. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (غافر ٦٧)، وقال في تدرج بنيته الجسدية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الروم ٥٤).

.. وسوى ما تقدم، فإن هناك (علامات) إشارية، كما في وعده ﷺ - في العام الذي توفي فيه- للمراءة.. العام القابل، بقوله: { إن لم تجديني، تجدي أبا بكر} وقال أبو بكر - حين نزل قوله تعالى: ﴿ أَكْمَلْتُ[٣] لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] " هذا نعي رسول الله " - وهي فراسة منه ﷺ - ونزول سورة النصر ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] .. أو حينها قال أبو بكر: هذه - كتفسير للآية-

ولقد حُدثت عن أحدهم.. وبعد حادث توفيت من جراءه والدته، أنها كانت تستحثّه على السرعة- ولم يكن من عهدها ذلك-، كما.. ونُقل إليّ عن أحد الأصحاب - وقد توفي ابنه يافعاً (في حادث)- أن إبنه وقبل كم يوم من وفاته يكرر على أهله طالباً.. أن: (يُحلّلوه .. من أي تقصير حدث منه)!

---

(١) .. وكما سيأتي في (سادساً) ص ٦٣ .

(٢) وهنا.. قد يطراء سؤال: هل هناك إشتراطات صحية أو دلائل اجتماعية تُحدّد: مَن يعيش أطول من الآخر؟، الجواب:

" أولاً: الأعمار بيد الله.. هذا شيء أكيد، ولكن ثبت أن النساء يعشن أطول من الرجال، وسكان الجبال يعيشون أكثر من أهل السهول، وأهل القرى أكثر من المدن، والقدماء أكثر من المعاصرين، وغير المدخنين أكثر من المدخنين[*]؛ والمتزوجون أطول من العزاب؛ والنحاف أكثر من السمان؛ والطوال أكثر من القصار، والكائنات الكبيرة أكثر من الصغيرة، وآكلات العشب أكثر من اللواحم.. وبعض الشعوب كما في اليابان يُعمّر أكثر من أي شعب في العالم..

كما وأن هناك عاملين نفسيين مهمين لهما علاقة بطول العمر.. الأول أن أصحاب الضمائر الحية[*] يعيشون عمراً أطول من الانتهازيين ومعدومي الضمير، والعامل الآخر: أهمية الاستقرار العائلي والعيش مع الوالدين (في سن الطفولة) مقابل العيش في ظل والدين مطلقين أو كثيري التشاجر.." - بتصرفٍ ..مادة لـ: (فهد الأحمدي) -

- [*] فهناك أسباب لإطالة العمر من عامين إلى ثلاثة لكل سبب منها - ومع ما تقدم كترك التدخين وممارسة الرياضة قلت الوزن، تناول سعرات حرارية أقل.

(٣) ومن هذا المعنى (أكملت) علل عمر بقوله: (ما بعد الكمال إلا النقصان)!- فإن من يصعد الجبل ويبلغ قمته، عندها حتماً يبداء بالنزول.. منه-

... وإليك هذه (الحقائق) العآمّة عن الموت :

أولاً.. هو(حكمٌ قضى به الله على جميع الخلائق)، فلا ولن يشذُّ عنه نبيٌ مُرسل، ولا مَلكٌ مقرّب!.

.. ومن فيها[١] جميعاً سوف يفنى (ويبقى وجه ربك ذي الجلال)

وتقريب هذا : أن ليس أكرم على الله - سبحانه وتعالى - من إمام الأنبياء وسيد الأولين والآخرين (محمد بن عبد الله) ﷺ، من مدلول قوله ﷺ : { أنا سيّد ولد آدم ولا فخر }[٢]، وقد حكم الله سبحانه عليه بالموت، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ[٣] وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر ٣٠)، وقال أبو بكر .. حين قبّله وهو مسجّى ﷺ : " هي موتتك الأولى، ولن تموت بعدها " - كما سيأتي ص ١٠٣ -

.. قال أبو العتاهيه[٤] :

(الموت) باب وكل الناس داخله فليت شعري.. بعد الموت ما (الدار)![٥]

ثانياً : إن الموت يشمل كل حي من المخلوقات، بما فيهم الأنبياء والملائكة، والجان، بل حتى ملك الموت نفسه[٦]، قال سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

---

(١) أي : الدنيا .. روى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : {كبّرت الملائكة على آدم أربعاً}..، وكبر عليّ على فاطمة أربعاً، وكبّر عمر على أبي بكر أربعاً. وكبر صهيب على عمر أربعاً، قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال : عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر ابن سعد في الطبقات ج١/ ٢٠ .

(٣) .. انظر (شرحاً) فيما تقدم ص ١٢ هامش (١).

(٤) ويروى لـ (صالح بن عبد القدوس).

(٥) أجل، و.. هو : بيت القصيد، كما يُقال!، ثم عرّف بالبيت التالي :

فالدار جنات عدن إن عملت لها، وإن خالفت.. فالنار!

أي : الأخيار ثالث .. سواهما .

(٦) كما في الحديث : { ويُأتى بالموت ككبش أملح، فيُذبح بين الجنة والنار، فيقال لأهل الجنة خلود بلا موت، ولأهل النار: خلود بلا موت} رواه البخاري ومسلم .

إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴿٨٨﴾ ﴾ (القصص ٨٨) ، وقال تعالى أيضاً: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الواقعة ٦٠)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : { أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت، أنت الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون } [متفق عليه].

ثالثاً: مهما دعا الإنسان أن يطول عمره فلن ينفعه شيءٌ، لأنه- و كما قال سبحانه- : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأعراف ٣٤)، عن أنس ﷺ قال : خط النبي ﷺ خطوطاً، فقال : { هذا الأنسان وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب} رواه البخاري، فالقضاء محتوم[1] والأمر مُبرم.

روى الإمام مسلم عن أم المؤمنين أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وبنت أبي سفيان رضى الله عنهما، أن النبي ﷺ عندما سمعها تقول : اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها النبي ﷺ :

{ قد سألتِ الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومةُ لن يُعجل شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً عن حله، ولو كُنتِ سألتِ الله أن يُعيذكِ من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل }.

وحين أحتضر أبو بكر ﷺ ، قيل له : الا ندعوا لك بطبيب؟ قال (قد نظر إلى طبيبي وقال : إني فعَّالٌ لما أُريد)[2].

---

(١) الشيء المحتوم: الثابت وقوعه.

(٢) تاريخ الخلفاء – ص٨١- ، من معنى الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود١٠٧]

رابعاً : لن يحولهُ عنك قريب محبّ، ولا يقيك منه قوّةٌ جبارةٌ، .ولا حصون مُشيّدةٌ، حتى ولو حاول الإنسان التخفي، أو التمترس[1] عنه، فلن يُجديه نفعاً فعل هذا، بل ولا يجد إلى ذلك سبيلاً،قال جل وعلا : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء ٠٧٨)

- ومن هذا قرر محمد بن عثيمين بـ :

هـو (المـوت) مـا عنـه مـلاذو مهـرب متى حُط ذا عـن نعشـه.. ذاك يركـبُ-

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ[2] ﴿٨﴾ ﴾ (الجمعة ٠٠٨).

وأخرج ابن سعد في (الطبقات): حين ثقل على أبو بكر، استشهدت عائشة رضي الله عنهما بقول (حاتم الطائي):

(أماوىُّ) ما يُغـني الثـراء عـن الفتـى إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصـدر

فكشف عن وجهه، وقال ليس كذلك، ولكن قولي : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ (ق ٠١٩)).

فلا مناص منه أبداً لأنه ماضٍ من قِبل مُقدِّر[3] الآجال عزّ وجل، ويُجمل ذلك قوله ﷺ : { لن تموت نفس.. حتى تستكمل أجلها ورزقها } [انظر: فيض القدير].

---

(١) وقال – الجاهلي – زهير :

ومن هاب (أسباب) المنايا ينلنه وإن يـرقى السمـاء بسلّـم

(٢) وهنا لافتة بيانيّة في القرآن بـ ﴿ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾، أي: أن من يفر من الموت لن يتبعه حتى يُمسك بتلابيبه، بل إنه مُلاقيه - وكأنه يحاصره.. من كل جهه-

(٣) ولهذا، لما طُعن عمر ﷺ، استشهد بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾(الاحزاب ٠٣٨) - أي : واقع لا محالة.

خامساً: .. ولقد حدد الله سبحانه وتعالى لكل مخلوق مكاناً وزماناً لموته فلا يحيد عن مكان وفاته قيد أنملة، ولا يزيد في عمره طرفة عين، قال عزّ اسمه: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾ ﴾ (لقمان ٣٤)، وجاء في (صحيح البخاري) أن النبي ﷺ قال :

{خمسٌ لا يعلمهنّ إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متي يجيء المطر}.

وأخرج الحاكم في : " المستدرك" عن النبي ﷺ أنه قال : { إذا أراد الله قبض روح عبد في أرضٍ[1] .. جعل الله له فيها حاجة}.

.. ومن العجيب ما رُوي في : تفسير "البيضاوي[2]" :

(أن مَلَك الموت مر على نبي الله سليمان عليه السلام، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ويُديم النظر إليه، فقال الرجل : من هذا ؟ قال : مَلَكُ الموت، فقال : كأنه يُريدني، فمُر الرياح أن تحملني وتُلقيني ببلاد الهند، ففعل، ثم قال المَلَك لسليمان عليه السلام :

كان دوام نظري إليه تعجباً منه، حيث كُنت أُمرت بأن أقبض روحه بالهند وهو عندك، فسبحان من صرفه إلى أجله بيده!).

ثم، ولحكمة أدركها كل عاقل، فقد أخفى الله سبحانه وتعالى عن الخلق (آجالهم) وأوقاتها وأماكنها.

---

(١) .. وذُكر لي عن أخوين، كان أحدهما كثير السفر خارج (الوطن)، والآخر لم يبرح منطقته- فضلاً عن وطنه .. - ولما ذهب في سفرة وحيدة إلى (تركيا) مات هناك!

(٢) المعروف بـ " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " لعبد الله البيضاوي الشافعي ت ٦٨٥هـ رحمه الله.

ليكون ذلك دافعاً للإنسان على التقوى والعمل والاستمرار والجد، لأن الإنسان إذا علم (وقت) موته.. فإنه قد يقترف ما يشاء في حياته من الموبقات ويتبع الشهوات والملذات، ويقول : أتوب قبل أن أموت!

أو كذا إن علم (مكان) وفاته.. فلن يأتيه مطلقاً!!

.. وقد قال وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ (آل عمران ١٤٥) ، ويفسّر هذا ما صح عنه ﷺ:

{ ما من عبد مسلم يعود مريضاً **لم يحضر أجله** فيقول: سبعة مرات: اسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يُشفيك.. إلا عوفي}.

حتى .. قال عليٌّ ﷺ- وهو في موقعه (صفّين) -:

أيّ يـــوميّ مـــن المـــوت أفـــرّ ... يـــوم لا يُقـــدر، أم يـــوم قُـــدرْ

يـــوم لا يُقـــدر.. لا أرهبـــهُ ... وإذا جـاء[1]،.. لا ينفعني فيه الحذر

وقال في إثبات هذا (المعنى) الشاعر :

إذا غرقـــت ببحـــرٍ ... مـــن الـــرَّدى فيـــاض

فـــلا يكـــن بهـــلاك ... عليـــك ظنّـــك قـــاض

فلـــيس في كـــل وقـــت ... ســـيف المنيّـــة مـــاض

وهاك مسألة – أو فائدة – أخرى : .. فقد اقتضت حكمة الله في إخفاء (الأجل) ومكانه؛ حتى لا يَعلق في ذهن الحي (وقته)، فيتنكّد وينصرف شغله إليه، وكذا غُيّب (مكانه) عنه لحكمةٍ.. أبسطها أنه/ حتماً سوف يتجنّب مكان الورود عليه.

---

(١) أجل، إذ جاء لا ينفع، أو لا يستطيع أبداً.. دفعه!، كما قال الأول :

ما زلت تدفع كل أمر فادح ... حتى أتى الأمر الـذي لا يُدفَعُ

وقال أبو العتاهية – واعظاً هارون الرشيد :

كـل نطّاح مـــن الدهـر ... لـــه يـــوم نطـــوح

سادساً: لكن هناك أسباباً قد.. تُنسئه[١]، مما أشار إليه الحديث، الذي رواه البخاري عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

{ من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ[٢] له في أثره، فليصل رحمه}.

.. وعنه ﷺ قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال منها: { أسبغ الوضوء يزد في عمرك} أخرجه الطبراني في الأوسط- وانظر كتاب (كيف يطل عمرك) لـ د. محمد النعيم-

فالغالب أن هذا معناه (البركة) في العمر[٣]، وذلك بأن يُلهمه الله تعالى فيه عمل الخيرات والصالحات، وترك المنكرات والطالحات من الأقوال والأعمال، فيكون قد ختم الله له بالحسنى، فيفوز في الدنيا والآخرة، وهذا خيرٌ له من (طول) العمر ربما على غير طائل- إلا ما شاء الله-

كما .. وأن (البركة)[٤].. أو معناها، أولاً: من البرك (الثبوت واللزوم)- أي ثابت، أو متسمر (غير منقطع)- كما قال تعالى دعاءً على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم٣١] وللحديث:{ تباركوا بالنواصي.. }الخ.

ثانياً: من معانيها: النمو والزيادة.

---

(١) أي .. يُؤخّر- وقيل في شرحها أو معناها: (تُبارك بالعمر الباقي)-
قال ابن رجب - (شرح حديث لبيك اللهم لبيك) ص ٦٠- : " من عاش مع الله طاب عيشه، ومن عاش مع نفسه وهواها.. طال عيشه ".

(٢) .. أي: يمد ويطول، وفي معنى آخر: يؤجّل له في عمره-.. وليس قدره،في حين أو ساعة الموت، . ولم يرد (طال عمرك)، بل : (أطال الله بقائك)[*] كذا دعى عمر لعلي - رضي الله عنهما-.

- (*) أي : بقاءُ صيتك وذكرك خالدٌ في الآتي -

(٣) كما في دعاء الشيخ الرئيس (ابن سينا): اللهم هبني عمراً عريضاً، لا طويلاً – أي ذاك الذي أدع فيه ما يخلّد وما ينفع.. بإذن الله -، وأوجزها ابن رجب- رحمه الله- بما معناه: (أن يطيب عيشك، لا أن يطول..).
وإليك ملحظ : الشيء الذي يُحمد لخيره أو عظمته، يُقاس : بالعرض لا بالطول! كما في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الحديد٢١] ومن هنا، أدرك الخواص هذه اللافته - كما في دعاء ابن سينا.. أعلاه-

(٤) أبرك: أفعل هكذا تقول هذا: (مبارك) على وزن اسم المفعول من البركة، وتقول: مبارك على وزن اسم الفاعل بكسر الراء أي داع بالبركة ومُهنئا.

ولهذا فكل عمل (نُوي فيه الخير) يُبارك الله فيه، فمثلاً (الفيّة ابن مالك)، كم لقيت من عناية أهل العلم عرضاً وشرحاً.. وهكذا.

ثم .. أُلفت إلى استدراك .. لـ (د. صالح اللحيدان):

" ولست أرى جواز مثل هذه العبارات (حلت بنا البركة) (حلت البركة) (تبارك المحل) (أنت الخير والبركة) وذلك حينما يزورك صاحب أو عزيز".

ثم أنقل كلاماً أحسبه جيداً .. ووافياً أورده الشيخ: " محمد الحمد":

(قد يُشكل هذا الأمر على بعض الناس فيقول : إذا كانت الأرزاق مكتوبة والآجال مضروبة لا تزيد ولا تنقص كما في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف٣٤] ، فكيف نجمع بين ذلك، وبين الحديث - كما سيأتي- والجواب : أن القدر قدران: أحدهما: مُثبت، أو مُبرم، أو مُطلق، وهو ما في أم الكتاب (اللوح المحفوظ) الإمام المبين، فهذا لا يتبدل ولا يتغير.

والثاني : القدر المعلّق، أو المقيد، وهو ما في صُحف الملائكة، فهذا هو الذي يقع فيه المحو والإثبات. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : "والأجل أجلان: مُطلق يعلمه اللهُ تعالى ، وأجل مُقيد[1] "، وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ : { من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه}[2].

---

(١) في كتابه الجيد: (رسائل في التربية.. والأخلاق والسلوك). انظر: في ص ٧٤ وما بعدها.

(٢) وقال في موطن آخر (ابن تيمية) عندما سُئل عن الرزق: هل يزيد أو ينقص؟ فأجاب: " الرزق نوعان، أحدهما : ما علمه الله أن يرزقه فهذا لا يتغير.
والثاني : ما كتبه وأعلم به الملائكة، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب، ثم إن الأسباب (يقول المجدد ابن تيمية) التي تحصل بها الرزق هي من جملة ما قدّره الله تعالى وكتبه، فإن كان قد تقدم بأن يُرزق العبد بسعيه واكتسابه ألهمه السعي والأكتساب، وذلك الذي قدّره له بالاكتساب لا يحصل من دون الاكتساب، وما قدره له بغير اكتساب كموت مورّثة يأتيه بغير اكتساب.
فلا مخالفة في ذلك لسبق العلم، بل فيه تقييد المسببات بأسبابها، كما قدّر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر"- انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٨-٥١٧، و ٨-٥٤-

الـــمـــوت(*)

إصـــدار:

.. هو (الحقيقة) المطلقة التي كتبها الله عز إسمه وجلّ ثناؤه، علينا بقوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الرحمن ٢٦) .

ســـتنقلك (المنايـــا) مـــن ديـــارك ... ويُبـــدلك (الـــرّدى) داراً غـــير دارك

فهو: (هادم اللذات، ومُفرّق[٢] الجماعات)، الذي قال فيه ﷺ : {تركت فيكم واعظان: الموت والقرآن }.

هـــي الأيـــامُ لا تُبقـــي عزيـــزاً ... وســـاعات الســـرور بهـــا قليلـــة

إذا نشـــر الضـــياءَ عليـــك نجـــمٌ ... وأشـــرق، فارتقـــب يومـــاً أفولـــه

و.. هذه سُنّة الله في خلقه منذ (الأزل)، وحتى قيام الساعة، فهو أي :

(المـــرء) رهـــن مصـــائب لا تنقضـــي ... حتـــى يُوسّـــد جســـمه في رمســـه

فمؤجّـــلٌ يلقـــى الـــرَّدى في غـــيره ... ومعجّـــلٌ يلقـــى الـــردى في نفســـه

ولكن من المقطوع به - وقد تقدّم ص٦١ -: أن لا أحد يعلم متى يموت ولا أين، **أو** كيف سيموت، إلا أنه أي: (الإنسان).. وهو الشاهد: مأمور بأن يموت مُسلماً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (آل عمران ١٠٢)

(*) ومن مرادفاته: الوفاة، الأجل، المنيّة، السّام، الحِمام، الرّدى – وأتى كنايةً بـ : (الرحيل) و(الوداع) الفراق) (البين) .. الخ ، والعجيب أنه أتى بالقرآن الكريم ذكر الحياة والموت بنفس المرات (١٤٥) مرّة.

- قال الرافعي : **خُلق البنين للـــردى ... والبنـــات للممـــات!-**

(٢) وهل (أبلغُ) من أن نأمر بالقيام للجنازة!

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : مرت بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا له، فقلنا: يا رسول الله، أنها جنازة يهودي ؟ قال : { إذا رأيتم الجنازة فقوموا}. متفق عليه.

ثم، في الاتعاظ – وقد تقدم ص٤٩-: من رحيل (الغير) بخاصة من كان قريبٌ من سنّك/ بأن تعمد إلى الاستعداد، فـ : (من لم يكن له في الموت وآعظ..، فلن تفيده كل المواعظ)- لأن :

كـــل ذي غيبـــة يـــؤوب .. وغائـــب المـــوت لا يـــؤوب-

.. وقيل: (لا تنظر لمن هلك كيف هلك؟ ولكن انظر : لمن نجى وكيف نجى)؟!- أي : في اتخاذ الأسباب وسلك السّبل التي منها نجى-، فالحياة (فرصة) ونرحل .. وأن التأهب للرحيل وعيٌ وبصيرة، وأن الغفلة عن حقيقته ندم وحسرة .. فتدرك بهذا قِصر الحياة[١] - لا أن تبني قصراً بها!- قال أبو الطيب :

كـــأن المـــوت لم يُعـــرف لحـــي ولم يخطـــر لمخلـــوق ببـــال

وهل أجزل من هذا (المعنى) .. والذي بسطه أحد الوعاظ :

(.. عندما تُولد يا ابن آدم يؤذّن في أذنك[٢] من غير صلاة!، وعندما تموت يُصلّى عليك من غير أذآن، وكأن حياتك في الدنيا ليست سوى أو ما يوازي الوقت الوجيز.. والذي تقضيه – انتظاراً[٣] - بين الأذآن والإقامة)!

وصدق المولى إذ يقول : ﴿ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ[٤] غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم ٥٥).

وقيل (في تقريب هذا):

أن مساحة الآخرة إلى الدنيا كمثل سعة (رحِم) الأمّ للمولود إلى الدنيا.

- ثم .. أوجز من هذا المعنى الشاعر :

---

(١) للحديث : { مثلي والدنيا، كرجل قال[*] عند شجرة ثم ذهب وتركها }.

-[*] أي : من القيلولة (في نصف النهار)-

(٢) .. وهذا (الأذان) هو من السنن النبوية : في أذن المولود حين ولادته.

فائدة: قال ابن القيم (وسرّ التأذين أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات النداء العلوي المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أوّل ما يدخل بها في الإسلام. ومعروف أن الشيطان يفر ويهرب من سماع كلمات الآذان، فيُسمع شيطانه - أي المولود - ما يغيظه في أول لحظات حياته).

(٣) وفي الحديث : {الناس نيامٌ، فإذا ماتوا.. صحوا}[*]، وقد روى الطبراني في الأوسط حديث حين سئل ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال : {النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون}.

- (*) انظر ثنايا ما يأتي .. ص ١١٢ -

(٤) .. قال أبو الحسن التهامي:

العيـش نومة، والموت يقظـــةُ والمـــرء بينهما خيال ســـارِ

تأكيداً لما جاء في الأثر: (الناس نيامٌ، فإذا ماتوا.. صحو)!.

ولـــدتك أُمّـــك وأنـــت تبكـــي[١] والنـــاس حولـــك تملـــؤهم سُـــروراً

فاجعـــل لنفســـك عنـــد موتهـــا والنـــاس تبكـــي.. ضـــاحكاً مســـروراً-

فيا الله.. ما أقصرَها[٢]، وأهونها، وأزرأها[٣]لوكذا قال لنا رسولنا الكريم – عنها – : { لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافر منها شربة ماء}، وقال أيضاً: { الدنيا ملعونة ملعون ما فيها[٤]، سوى ذكر الله وما والاه}، نعم ذاك مقامها .

.. ولقد استوقفتني كلمات معبرة للدكتورة خيرية السقاف، في وصفها الحياة: (أنها دار أحزان، ومأوى غربة، لا ينتشل الإنسان نفسه إلا بهجرة صادقة.. لمن معه تقصر الطرق، وتُمهد المحطات، وتنير المفازات، وتهون الحياة:

.. في رفقة الله تعالى لا غربة ولا حسرة، لا حزن ولا ألم..، لا خوف ولا وهن ..

فمَن يدرك درباً أخضر ولا يتَّجه إليه؟!

مَن يعلم عن مصدر خير ولا يلهث نحوه؟! مَن يسمع عن ثروة لا حدّ لها ونعيم لا نظير مثله ولا يضعه نصب عينيه ويحزم رحاله إليه؟!).

يمضـــي الصـــغير إذا انقضـــت أيامـــه إثـــر الكـــبير ويُولـــد المولـــود

والنـــاس في قســـم المنيّـــة بيـــنهم كـــالزرع منـــه قـــائم وحصـــيد-

فما بالك – أخي في الله – بما أعدّه الله لك في الجنة ، في قوله تعالى:

---

(١) وهنا تفريق بين التفسير الظاهري لبكاء الطفل في ذهن الناس، وعند الأطباء.. الذين يقولوا ، كما تعلل " د. عالية نشوان": (إن الطفل عندما يخرج من رحم أمه، تدخل كميّة كبيرة من الهواء عن طريق التنفس إلى رئيته الفارغتين تماماً، وإن كمية الهواء هذه تُحدث صدى عالياً في رئة الطفل حديث الولادة تدفعه للصراخ بصوت مرتفع..) .

وإلا ثبت .. ما جاء في الحديث { إن الشيطان ينخز في المولود عند مولده فيبكي}.

(٢) حتى قال عنها نوح عليه السلام وقد عُمّر: (مثلي والدنيا، مثل رجل دخل من باب وخرج من باب آخر)!

وقال شعيب عليه السلام (وقد عُمّر) : وددنا لو عمرنا بيت، لكن العمر لا يستحق- أو كلمة نحوها-

(٣) .. قال تعالى : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ (هود ٣١) أي تنتقص .

(٤) وهذه إيمائة كافية.. على أن الدنيا على أسمها، و(دنيّة) من أن يطمع بما بها.. كل ذي عقل راشد - وانظر تجليات عن هذا في كتابي (ديوان البيان) ص ٤٢٤، مع هامش (٢)-

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وظِلُّهَا[1] تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا . . ﴾[الرعد٣٥] وقد أطعتّه، .. فَهل يوازي عُشر هذا ما (نال) من.. ﴿ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[النجم٢٩] مِن لذائذ الدنيا.. وقد عصا الله[2]؟!

ختاماً .. قال أحد الحكماء: (إنما أنتم في الدنيا أغراض المنايا، وأوطان البلايا، ولن تنالوا نعمةً إلا بفراق أُخرى، ولا يستقبل منكم مُعمّر يَوماً من عُمره إلا بانتقاص آخر، فأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، وفي معاشكم أسباب مناياكم، لا يمنعكم شيء منها، فأنتم الأخلاف بعد الأسلاف، وستكونون أسلافاً بعد الأخلاف، بكل سبيل منكم صريع متعقر[3]، وقائمٌ ينتظر، فمن أي وجه تطلبون البقاء؟!)

و.. (وعظ) الرحّالة " حسين بن جُبير " :

عجبت للمرء من دُنياه تُطمعه ... في العيش، .. والأجل المحتوم يقطعه
يغتر بالدهر مسروراً بصحبته ... وقد تيقّن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصاً لا يُفارقه ... وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يُشفق من تضييع درهمه[4] ... وليس يُشفق من دين يُضيعهُ!

والأبيات، بل والأمثال والحِكم - في هذا- أكثر من أن يُؤتىَ عليها، أو يصعب أن تُستقصى بهذه (النبذة)، والتي هي للتنبيه والإعلام، والإفاقة من الاسترسال بالأحلام[1].

.. ثم، أو / .. إليك **التالي** :

---

(١) .. ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[السجدة : ١٧]، وفي الحديث " عنها – ما يُغري : {ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر}.

(٢) وكما سيأتي (شرحا) ص ١١٩/ ١٢٠

(٣) .. أي : مقتول، من قوله تعالى .﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ (الأعراف ٧٧) – أي قتلوها -

(٤) وهذه حال أكثر السادرين بالدنيا، من الذين : يحبون ﴿ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر ٢٠)- وكنّاه بآية أخرى ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[العاديات٨] والخير هنا : أي المال -

(١) .. وهي يقظة (المنام)!

(فوائدٌ) في ذكر الموت(*) :

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (البقرة ٢٨١) وقال النبي ﷺ : { أكثروا من ذكر هادم اللذات}(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال : قال رجل من الأنصار: من أكيَسُ النَّاس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : {أكثرهم للموت ذِكرا وأشدُّهُم استعداداً له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرفِ الدُّنيا وكرامة الآخرة}(٣).

وحمد المولى فئة بـ ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص٤٦] أي : اليوم الآخر.

وفي الحديث الذي رواه مسلم: { زُوروا القبور فإنها تذكّر بالموت} .. دلالةٌ على أن الإنسان ينسى أو يغفل، فيجب أن يُذكر(٤) و يُنبّه بالمبادرة بالأعمال الصالحة، قبل الممات والاستغفار على ما فات.

- تـزوّد مـن التقـوى فإنـك لا تـدري إن جـن ليـل هـل تعـيش إلى الفجـر -

وقال الجاحظ : (كفى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عِظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكرك الموت زاجراً)، .. فإن من خبِر (الدنيا) لم يأسف عليها! .. قال أبو الطيب :

إنـــي لا أعلـــم والبيـــب خـــبير أن الحيـــاة وإن حرصـــت غـــرور

و.. أجاب عابد البصرة- لمن سأله: أين القوم - ذهب به إلى المقابر، وقال: هنا العُمّار، فقال له أينهم- وهو يُشير إلى خلو السوق-، فقال له : (مَن هناك سيأتي هنا، ولا أحد من هنا سيعود لهناك)!

(*) التذكير نوعان : تذكير بما لا يعرف تفصيله، مما عُرف مجمله بالفِطر والعقول.. الخ، والثاني، وهو مقصدنا: تذكيرٌ بما هو معلوم للمؤمنين. من (تفسير السعدي).

(٢) الحديث : [رواه الترمذي وحسّنه والنسائي وابن ماجه] – وفي روايه/ هادم .. بـ الذال ، أي : (هاذم)

(٣) رواه ابن ماجة برقم (٤٢٥٩) بسند ضعيف مختصرا، ورواه أيضاً ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح - قاله العراقي في تخريج أحاديث (إحياء علوم الدين) للغزالي (٤/ ٤٥١).

(٤) البعض عفا الله عنه: يمتعض من التذكير بخاصة في هذا العهد الضيّق نفساً وأفقاً، وقد وبّخهم المولى بـ: ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴾ (المدثر ٤٩) .

- وحين قام رجل في المسجد وقال لعمر ﷺ: اتق الله!لم يأنف بل أنه قال .. يحثهم إلى النصح والتقويم: (لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها)-

وتحت عنوان (رحيل الأحباب) كتب ماجد العمري .. راثياً (جَدّهِ) :

" نبكي فقيداً ونودّع راحلاً ، فما أن يندمل جرحٌ حتى يُفتح آخر!

مَن سيبقى في هذه الدنيا!، حتى الأنبياء قد رحلوا.

ما أثمرت شجرةٌ إلا وتهاوت بجانبها عشرٌ.

يا تُرى إلى متى ونحن نُفجع في فراق الأحبة؟!

إلى أن يُفجع بنا من يحبونا.. ، يا ألله"؟

.. ولأن ديننا العظيم (وسطٌ) فقد نهى النبي ﷺ عن تمنيه: { لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرٍ نزل به[1]، فإن كان لابد[2] متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني ما كانت الوفاة خيراً لي } متفق عليه.

وروى ابن المبارك - في كتاب (الجهاد) - بإسناده عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : (لولا ثلاث، لولا أن أسير في سبيل الله عز وجل أو يغبرّ جبيني في السجود ، أو أقاعد قوماً ينتقون طيب الكلام كما يُنتقى طيّبُ الثمر ، لأحببت أن أكون قد لحقت بالله عز وجل).

.. وأجمل تعزية للفاقد قول (التهامي) راثياً ابنه :

جـاورت أعـدائي.. وجـاور ربّـه شـتان بـين جـواره.. وجـواري!

- صدق والله، ففي الحديث: {من كره لقاء الله كره الله لقاءه} - .. واسترسالاً :

قال ابن القيم رحمه الله: (لِلهِ درّ "آسيا" امرأة فرعون إذ قدمت الجار على الدار بقولها ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴿١١﴾ ﴾ (التحريم ١١)) .

---

(١) حتى قال - تجاوزاً - شاعر النيل (حافظ إبراهيم):

سلام على الدنيا سلام مودّعٍ رأى في ظلام القبر أُنسا ومغنما

(٢) أي .. أو حين :

إذا استوت الأسافل والأعالي فقـد طابـت مُنادمة المنايـا

ثم، وفي الإكثار من ذكر الموت فوائد ((منها :

١- أنه يحث على الاستعداد له قبل نزوله.

٢- أنه يحث على التوبة، واستدراك ما فات.

٣- أنه يقصّر الأمل في طول البقاء، وطول الأمل .. الذي من أسباب الغفلة.

٤- أنه يزهّد في الدنيا، ويرغّب في الآخرة.

٥- أنه يهوّن على العبد مصائب الدنيا، ويمنع من الأشر والبطر.

٦- أنه يرقّق القلوب، ويُدمع الأعين، ويسلّ السخائم[١]، ويدعو إلى التواضع وترك الكبر)).[٢]

.. ولأن من استحضر ذلك، استعدّ لذلك، كما في حديث : {من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل}[٣] .. والتي هي - والله أعلم- كناية عن (حُسن الخاتمة) بإذن الله - كما سيأتي-، يسند قولي تعليق الإمام " محمد الشعراوي" - رحمه الله - بقوله :

(.. وهكذا نجد أن هذه الدنيا - الدنية - ينقصها تمام الغاية المرجوة في " خلد المرء"، وهذه الغاية لا تتحقق إلا أن لا تموت، .. ولا يفوتك الخير).

.. فإن كان الموت مُحققاً لقوله تعالى:﴿أَفَأَن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ[٤]﴾ [الأنبياء : ٣٤] .. فلا أقل من تحقيق الخير .. أو الذكر (الحسن) :

فاجعل لنفسك ذكرها من بعدها ... خيراً.. تكن في الخالدين مخلدا

(١) أي : البغضاء – وفي الحديث : { ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا .. الخ}.

(٢) .. نشرة (أين تذهبون) – مدار الوطن للنشر - .

(٣) الترمذي برقم (٢٤٥٢).

(٤) وهذا استفهام تنكّري، أي : هل إن مُتُّ سيخلدون هم؟، كلاّ وربّي، قال حكيم: (عجبت لميّت يعزّي ميتٍ في ميت)!.

obeikandl.com

(حُسن الخاتمة)

اعلم.. أن ليس (الخطبُ) بحق .. الموت - وإن بدى للبعض ذلك- فهو (قدر) ..

لا يرهب الموت من كل امرءٍ فطنا ... فإن في العيش أرزاء وأحداثاً

وليس يأمن قوم شر دهرهمُ ... حتى يحلّوا ببطن الأرض أجداثاً

.. و (كوب) كلّ شاربٌ منه، بهذا.. وسمه المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما لنا ... نعاف ما لابدّ من شُربه؟!

لكن الخطب بحق فيما بعده[1]، كما قال تعالى ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (العنكبوت ٦٤.) فجعل الآخره هي الحياة الحقّه، ولهذا أكّدها بقوله تعالى : ﴿ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ (الفجر ٢٤.) ، وتبعها بأشدّ أنواع اللوم:﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزمر٥٦] هذه وربي: هي الحقيقة..

وذاك أن من المعلوم أن نصيب الإنسان في الدنيا (عُمره)!

والتي غالباً ما ينبيء عن الحال : سيرة المرء[2]، ثم لحظة الخاتمة.. التي يودّع فيها، .. وكم حسرة تحت التُّراب – لا نُحسّها[3]-!

---

(١) ولهذا يعجب فقيدنا (علي الطنطاوي) - رحمه الله - من قول العوام عن من مات: أنه استراح!، بـ: (كيف استراح، وقد قامت قيامته)!.، وبدأ حسابه!

(٢) .. من ثناء الناس عليه كما في حديث : { أنتم شهود الله في أرضه }.

(٣) لحديث:{ لو أسمعتكم ما في القبور لما هنيء أحد بعيشه}، وحديث:{ إنما يُعذبان، وما يعذّبان لكبير .. } الخ.

وكان عثمان ﷺ إذا شيّع الجنازة ووقف على القبر[١] بكى، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفت على القبر؟، فقال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : { إن القبر أوّل منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسرُ منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد }[٢].

وقال ﷺ : { وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها }[٣].

.. ويُقربّ هذا قوله ﷺ عند ذلك : {إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو[٤] للناس ، وهو من أهل النار، وأن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة} ، وقد قال ابن مسعود ﷺ :

(المؤمن يرى ذنوبه كأنّه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه} البخاري ومسلم.

= .. ولهذا مما يُناسب ، ففي إجابة عن أحد الأسئلة قال الشيخ (عبدالله المطلق) :
" ثبت أن سورة (الملك) مانعة من عذاب القبر لمن وعاها وقرأها وقام بها، فقد أخرج النسائي والبيهقي والطبراني والحاكم وصححه عن أبي سعود ﷺ : { يؤتي الرجل في قبره من قبل رجليه فتقول رجلاه ليس لكم على ما قبلي سبيل فقد كان يقوم عليّ بسورة الملك } .. وقال ابن مسعود ﷺ: " كنّا نسميها على عهد رسول الله ﷺ المانعة ".

(١) أي (الدفن) قبره دَفنه، وهو كرامة للمسلم الصالح وذل لسواه. جاء في التنزيل الحكيم ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس٢١].
.. و(قبوري) كذا هو : من يعبد القبر بطلب الشفاعة أو التوسل أو شد الرحال أو النذر عند القبر أو الطواف حوله أو جعله قبله يصلى: إليه، ولهذا جاء في الصحيح وتلقته الأمة بالقبول { اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد }.

(٢) رواه أحمد السند (٦٣/١) والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم.

(٣) البخاري (١١/ ٤١٧)، ومسلم برقم (٢٦٤٣)- وتفسير الحديث والله أعلم، يقرّ به قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] فالإنسان متى عمل صالح فهو توفيق من الله، لكن متى ما غيّب هذه النعمة عَلَى نَفسه، وألجاء فعله الخير غرور ذاته، تركه الله لنفسه!، وهنا يهلك،فينطبق عليه حديث { سبق إليه الكتاب، فيكون من أهل النار} ، ومن هذا المعنى نفهم قوله ﷺ في دُعاءه: { ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين} هذا.. ما ذهب إلى تفسيره للحديث فضيلة العلامة (سالم الشيخي) حفظه الله، وأحسبه وُفِقَ إلى بسط معنى الحديث، ولهذا أورد (ابن عطاء) في حكمه: (لتعلم عند الله مقامك، انظر على ماذا أقامك)!

(٤) .. وهذا يشرحه/ القصد في العمل، والنيّة في دافع صنيعة، كما في الحديث .. { ولكن قاتلت ليُقال شجاع..إلخ} رواه مسلم- ثم .. تعليلاً من ناحية أُخرى.. في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٤] -

قال الفضيل بن عياض (أقلق قلوب الصالحين أن بدأ بالصغائر قبل الكبائر) يقصد قوله تعالى: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف ٠٤٩) .

وكم من شخص أصرَّ على صغيرة[١] فألفها وهانت عليه، ولم يفكر يوماً في عَظَمة من عصاه، فكانت سبباً في سوء خاتمته، قال أنس بن مالك ﷺ :

(إنَّكُم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، كنا نعدّها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات)[٢].

وكان علي بن أبي طالب ﷺ يشتد خوفه من اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى، وعلل: (فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق)، وكان يقول : (ألا وإن الدنيا قد ولّت مدبرة والآخرة قد أسرعت مقبلة، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل) .

أجـل :

.. هكذا كان السلف الصالح يخافون من سوء الخاتمة خوفاً شديداً.

قال سهل التستري:"خوف الصّديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ[٣] ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون ٠٦٠) ".

---

(١) ..ومن هنا قرر أهل العلم : (لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الأستغفار) - وانظر في هامش (٤) ص ٥٤-.

(٢) المسند (٦٣/١) ، والترمذي برقم (٢٣٠٩).

(٣) أي : خائفة من أن ألا تُقبل.

كما قال أبو بكر الصديق ﷺ : (لو دخلت قدمي اليمنى الجنة، لا آمن[1] على اليسرى)، وعمر ﷺ - حين طُعن - قال .. وقد أمسك تبناً : (ياليتني هذه)!، لكن على أن إلا يبلغ (الخوف) بالمرء حالة اليأس، فيبلغ مرحلة القنوط، أو سوء الظن التي تؤول به إلا ما لا يُحمد عُقباه!

من هنا علّق (د. عبدالله المطلق) في التوفيق بين الخوف والرجاء :

" ينبغي أن يكون الخوف من سوء الخاتمة ماثلاً أمام عين العبد في كل لحظة، لأن الخوف باعث على العمل، وقد تقدّم قوله ﷺ : { من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة} لكن إذا قاربت وفاة الشخص وأشرف على الموت فينبغي له حينئذٍ أن يُغلّب جانب الرجاء، وإن يشتاق إلى لقاء الله، فإن من أحبّ لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه".

أي .. بما قاله ﷺ : {لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله عز وجل }[2]، وقد بشرنا جل وعلا : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الحجر ٤٩) ، وقال سبحانه : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (البقرة ٣٨) فاتبع هدى الله فـ ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة ١٢٠) حتى لا تخاف من ما هو آتٍ، ولا تحزن على ما فات.

.. و(.. قبل الأجل، الاستعداد له بقلب مطمئن، وأمل بلا حدود، ومزيد من حُسن الظن برحمة رب العالمين، بعزة جلاله ومطلق جماله.

---

(١) .. ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾(الأعراف ٩٩) .

(٢) مسلم برقم (٢٨٧٧).

وقبل الأجل، الكثير والكثير يجب تداركه، والإنسان أعلم بنفسه ليبدأ رحلته مع حياة الخلود، فالرحمة والمغفرة بإذنه تعالى أملٌ منتظر إن شاء الله)[١].

أي : بأن يصاحب ما تقدم (العمل).

فالقرآن الكريم وبأكثر من ثلاث مئة موضع (ربط) بين الإيمان والعمل الصالح[٢]، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠]

.. قال معروف الكرخي : " رجاؤك لرحمة من لا تُطيعه من الخذلان والحمق"! ومثّل لهذا بعض العلماء: " مَن قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم[٣]، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا"، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝﴾ (الحجر ٥٠).

.. وإليك هذا المثال : كان أحد الحدادين يعمل في ظهيرة يوم حار من أيام شهر رمضان، وكان يتصبب عرقا، فقيل له: كيف تتمكن من الصوم والحر شديد والعمل مضني؟ فأجاب: (من يُدرك قدر[٤] من يسأله يهون عليه ما يبذله).

---

(١) كما قال (د. عبد المحسن بن عبدالله التويجري).

(٢) في : الإيمان كما قرره أهل السنة- أو هو عندهم-: (قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة) - تفسير السعدي للآية ١٩ سورة الحديد- ويشرحُ ابن القيم " .. والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب ، فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك" - وانظر في ثنايا ما يأتي ص ١١١-

(٣) يقصد (حدّ السارق) في الإسلام.

(٤) .. وأنظر هامش (١) ص٥٤ .

ثم نورد أسباب (سوء الخاتمة) مختصرة لعلها تنبيها:

١- التسويف[١] بـ (التوبة)، وقد روى الأغر المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: { يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة }[٢].. أجل:

(استغفر الله) الذي عوّدنا ... بالجود منه والمنّ والكرم

فـ { من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل..} - كما في تشبيهه ﷺ -

٢- طول الأمل: وقد حذّرنا[٣] منه الرسول ﷺ، أشدُّ تحذيرٍ فقال: { إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا }[٤]- وانظر ما تقدم ص ٦٩-

٣- حب المعصية وألفها وقد قال ﷺ: {من مات على شيء بعثه الله عليه}[٥].

٤- الانتحار، وقد روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ حديث: {الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعنها في النار}.

---

(١) والأسوأ (حالاً) ما .. قالت عنه (د. نادية عوض): ما يذهلني وبالتأكيد يذهلك وغيرك.. إن بعض الناس يرى الموت كل يوم.. ومع هذا فبعد جنازة عزيز لديه.. يعود إلى سيرته الأولى يستمر في الكذب أو الغيبة أو سوء معاملة الجار أو قطع صلة الرحم أو عدم البر بالوالدين أو النصب على الناس وقبول الرشوة.. وكأن شيئاً لم يكن.. وكأنه لم ير مشهد الموت الرهيب الذي نشعر به بمجرد أن نسمع هذا الخبر المؤلم.. ما بالنا بمن رآه؟!- وهذا .. ما ذكرت فيما تقدم: عن حالة قاسي القلب !-

(٢) رواه مسلم برقم (٢٧٠٢).

(٣) وقد أرشد الرسول ﷺ المؤمنين إلى ما يبعد عنهم طول الأمد بعدّة أسباب، منها: ذكر الموت وزيارة القبور وتغسيل الموتى، وتشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وزيارة الصالحين - .. وفي الحديث :{ هل تنتظرون ..} إلى أن قال {أو موتٍ مُجهِزٍ..الخ} رواه الترمذي (٢٤٠٨)-.. وقيل: من زرع (لو) و (ليت).. حصد: (لا شيء)، واستطرادا:

وأذكر مثل وافٍ لدى أهل الرافدين: (زرعوا "لو" في جنّة وما أثمرت).

ولا تحمد (لو) إلا بختيار عمل أفضل مما قدّم، كما في الحديث: { لو أستدبرت من أمري ما استقبلت .. الخ}-

(٤) رواه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف، والعراقي في تخريج أحاديث (احياء علوم الدين) - للغزالي (٤/٤٥٣)-

(٥) رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

بشائـــــر :

دالّة على حُسن الخاتمة بإذن الله تعالى:

١- النطق بكلمة التوحيد عند الموت. فقد روى الحاكم عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : {مَن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة} [(١)].

٢- أن يموت شهيداً ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (آل عمران ١٧٠) .

٣- أن يموت غازياً قال ﷺ : { مَن قُتل في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد} رواه مسلم وأحمد.

٤- أن يكون آخر عمله طاعه : قال رسول الله ﷺ : { من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله خُتم لهُ بها دخل الجنة ، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة } [(٢)].

٥- الموت في سبيل الدفاع عن (الخمس) [(١)] التي حفظتها الشريعة ، عن سعيد بن زيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : {من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتل

---

(١) ورواه أبو داود (٣١١٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي- وهذه (الشهادة) لها شروط - كما نظمها رجزاً.. (حافظ الحكمي) رحمه الله :

وبشروط سبعة قد قيدت	نصوص الشرع حقا وردت
إذ أنه لم ينتفع قائلها	بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول	والانعقاد. فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبّة	وفّقك الله لما أحبَّه

(٢) رواه أحمد (٣٩١/٥)، وأيضاً .. وحديث : {من قرأ آية الكرسي دُبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت}.

(١) وهي : (النفس ، الدين، العرض، المال، العقل) ، ومُراد حفظ العقل أي : من المُسكر وغيره.

دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد }[١].

٦- أن يموت صابراً محتسباً بسبب أحد الأمراض الوبائية[٢] كالطاعون مثلاً ، قال رسول الله ﷺ : { الطاعون شهادة لكل مسلم } رواه البخاري.

٧- موتُ المرأة في نفاسها بسبب ولدها قال ﷺ : {والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادةٌ يجرُّها ولدُها بسُرره إلى الجنة}[٣] .

٨- الموت بالغرق والحرق والهدم .. عن جابر بن عتيك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : {الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد ، والغرق شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، والمبطون شهيد ، والحرق شهيد ، والذي يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموتُ بجمع شهيدة}[٤] .

٩- الموت ليلة الجمعة قال رسول الله ﷺ : {ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر }[٥] .

١٠- عرق الجبين عند الموت : فقد روى رسول الله ﷺ قال : {المؤمن يموت بعرق الجبين}.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٧٢) والترمذي برقم (١٤١٨).

(٢) .. ومنها : السل، و (داء البطن) ، وذات الجنب.

(٣) رواه أحمد (٤/٢٠١).

(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه الترمذي.- برقم (٩٨٢) – والنسائي (٤/٦).

ومن الطريف/ قال رجل لمحمد بن مطروح: ما تقول بعاصٍ مات يوم الجمعة ، أيُعذّب عذاب القبر؟ قال : يُعذّب يوم السبت!

.. ثم (إيجازاً)[*]

وفي نهاية هذا الجزء.. يحسن بنا أن نوجز الوسائل التي جعلها الله سبباً في حسن الخاتمة، وهي :

أ- تقوى الله في السر والعلن والتمسك بما جاء به النبي ﷺ، فهو سبيل النجاة ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (ال عمران ١٠٢) ، وأن يحذر (العبد) من الذنوب أشد الحذر.

فإن الكبائر موبقات، وإن الصغائر مع الإصرار تتحول إلى كبائر، أو كثرة الصغائر[٢] .. مع عدم التوبة والاستغفار[٣] تكوّن راناً[٤] على القلب، قال ﷺ : {إياكم ومُحَقّرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى انضجوا خبزتهم، وإن محقّرات الذنوب متى يُؤخذْ بها صاحبها تُهلكه}[٥].

ب- المداومة على ذكر الله، فمن داوم على ذكر الله وختم به جميع أعماله، وكان آخر ما يقول من الدنيا لا إله إلا الله، نال بشارة النبي ﷺ حيث قال - وقد تقدم -:{ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة} ، وروى سعيد

(*) .. من رسالة (حسن الخاتمة) للدكتور. عبدالله بن محمد المطلق – فيما ذكرت ص٧٩، فما بعدها-

(٢) .. وحتى في الغرب يقرون بهذا المبدأ ، قال تشرشل: تأتي الكارثة من كثرة الأخطاء.

(٣) فالتوبة تختلف عن الاستغفار – كما قرر هذا (ابن تيمية) رحمه الله حين فرّق بينهما-، ومن هنا أتى ذكرهما سوياً.

(٤) أي : غطاء ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ (المطففين١٤) .

(٥) رواه أحمد (٣٣١/٥) .

ابن منصور عن الحسن قال : سُئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل قال : { أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله} [1].

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم .. من ﴿ ٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (النساء، ٦٩) .

(١) (المُغني) لابن قدامه – ٢/ ٤٥٠- .. وهو بالمناسبة/ المرجع الفقهي للمذهب الحنبلي .
- كما (الطحاوية) مرتكز لعقيدة أهل السنه والجماعة-

(الـرحـيـل)

توطئـه :

" ارتبط الرحيل مع الإنسان منذ وجوده كما هو الحال مع غيره، وللرحيل معانٍ مُتعددة[١] ويتصف بأشكال متنوعة، ففي الرحيل ما هو المؤنس والممتع والمفرح، وبالمقابل يوجد هناك المأسوي والمحزن والمؤلم، وهذا ما تزخر به هذه الحياة من تناقض وتضاد، مما يتضح من الحِكمة.

.. وهناك - وهذا رحى حديثنا- رحيلٌ أبديٌّ وهو: المصير النهائي الذي ينتقل فيه الإنسان من عالم إلى آخر، وهي الرحلة الأخيرة التي تغادر من الدنيا إلى أن تهبط على مشارف المنتهى بالدار الآخرة، وهذا حال كل الخلق في هذه الحياة.. فالكل سائر إلى مأوى النهاية "[٢].

.. لكأننا - نحن العرب – أُمّةٌ بُكائية[٣] (حزينة)! .. لـ /

---

(١) كما يعبّر عن إحداها (الشافعي) بـ : سافـر .. ففي الأسفـار خمس فوائـد!

.. وتختلف أوجه (الرحيل)، منها الدنيوي[*] الذي يكون ذا أهداف متعددة في محطاتٍ مختلفة من هذه الحياة وصوب اتجاه الإنسان فيها لما فيها من البحث والكدح نحو دُنياه.

- (*) وفي الحديث : { فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها، فهجرته لما هاجر إليه} ، وقيل:

سفر الفتى لمناطق وديار ... وتجوّل في سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع ... وتجارب ورواية الأخبار

بخاصة إن كان لمثل ذلك المقصد، أما إن كان لدنيا يصيبها أو مرمىً خفي، فإلى حيث ولّى -

(٢) مما سطّره الأديب (عبدالله الفوزان).

(٣) حتى قال الأصمعي: (لقد أبكت العرب العجوز[*] على شبابها)!.

- (*) ومما يُستملح في هذا، تلك العجوز المتاصبية، حتى قال فيها الشاعر : =

إرتباط العاطفة فينا بكل شيء : بالمنزل[١] - أو المكان - والخليل[٢].

حتى يُغالي المتنبي - كعادته - :

لولا مفارقه الأحباب ما وجدت لهن المنايا إلى أرواحنا سبلا

فكأنه (بهذا) يُوقف الموت على سبب واحد: (فراق الأحباب) سواء رحيلهم المكاني[٣]، أو الأبدي !

التعود[٤] على الشيء أيضاً، وفقدان ما لا يعود – كالشباب[٥] مثلاً - ، .. أو في التحسّر على الصِّبى، بخاصة عهده الصافي!، حين :

كانت[٦] القلوب خضراء، وبجوانح خاليه- كما في ايمائة " الأخطل الصغير" :

رُويدك، فالصّبابة لا تدوم ولا يبقى لك الوجه الوسيم!-

= (عجوزٌ) تمنت أن تكون صبيه وقد انحل الجنبان واحدودب الظهر

فراحت إلى العطار تبغى شبابها (وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر)-

(١) لكي يا منازل في القلوب منازل – هكذا .. إختصر : (مقامها) حكيم الشعر بلا منازع : المتنبي-.

(٢) وقد قال العجيلي : لا تلمني على البكاء عليه! .. إن فقد (الخليل) خطب جليل

(٣) وغُربة المكان.. في قول أبو الطيب عن (شُعب بوّان) :

ولكن الفتى العربي فيها غريب اليد والوجه واللسان

(٤) فالتعوّد أكثر الأشياء إلتصاقاً بالمرء، ولهذا .. قال جرير :

تعوّد صالح الأعمال، إني رأيت المرء يلزم ما استعادا

(٥) .. والمشهور قول أبو العتاهية :

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيبُ

ألاليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

(٦) وقد أسهبت عنها في مادتي بـ (الجزيرة) عدد ٩٩٧١- بعنوان : (رويدك)

.. وكما نرثي الأنفس العزيزة..، وننشج العهد الجميل الكان غالبه زهواً في القلب، كما يقول "القباني":

مال (الدمشقيّة) الكانت حبيبتنا لا تذكر[١] الآن بريق النظرة الأولى!

أو مكانه .. في الحنايا، كما يندب " أبو ماضي " :

أوّاه على غرفة كنتُ و(هند) نلتقي فيها

و ك : ذاك الذي عن الخافق لا يخفى (الأندلس)، بتوشيحة "ابن الخطيب" التي تترسمّها الذائقة ، فلا تجد عبيراً يفي عنها:

جادك الغيث.. إذ الغيث هما يا زمان الوصل في (الأندلس)!

وبمناسبة (الأندلس) .. نذكر مطلع ابن زيدون[٢]:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم، ولا جفّت مآقينا

و(بنّا) يعني افترقنا من (بان.. يبين.. بينا)[٣] قال جرير :

بان (الخليط)[٤] ولو طاوعت ما بانا وقطّعت من حبال الوصل أقرانا

.. أو ذاك (المجد) الغائب خلف وهننا أو قلُ: (هواننا) على العالم اليوم[٥]! قال " محمود غنيم " – رحمه الله-:

---

(١) وهذا - بالمناسبة - .. يحمل أرق أنواع العتب، حتى يقول يعقوب المخزومي:

هل تعلمين وراء الحب منزلة يدني إليك، فإن الحب أقصاني

(٢) وهو صاحب : **غيض العدا من تساقينا الهوى، فدعو بأن نغصّ، فقال الدهر أمينا**

- أو على حد زعم أحدهم:

فالدهر لاءم بين إلفتنا وكذاك فرّق بيننا الدهر -

(٣) ومنه البين الفراق، والعرب يتشاءمون بالغراب ويسمّونه غراب البين، .. فهم: يتشاءمون ويتفاءلون بالطير، فإذا مر من يسارهم متجها إلى يمينهم تفاءلوا به وسموه (السانح)، والعكس بالعكس إلى يسارهم (ويسمونه البارح) وهذا للعلم: من اعتقادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام، وفي الحديث : {الطيرة شرك}.
والله سبحانه حين ذكر هذا المعنى في كتابه ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣] - فإنه أورده: كناية عن عمله أحسن به أو اساء، وهذا من أعظم دلائل عدل الله -

(٤) والخليط : الصاحب .. والمعاشر الذي تخالطه - .. وذاك الذي تقضى الدنيا معه - انظر ثنايا ص ٢٨٧-

(٥) كما فصّلت عن جانب من هذا، في ختام كتابي (الناصرية.. قضية لها بقية)- مادة بعنوان : النكبة الثالثة!-

إني تذكّرت - والذكرى مُؤرقةٌ[١] - مجداً تليداً .. بأيدينا أضعناه

وإن كُنّا الآن نبكي - سبباً - على الماضي وعزّته، .. أو جلال وقعه في القلب! فالماضون بكو على الطلول والذكريات التي علقتها ومُؤرِّقاتها:

تذكّرتُ.. والذكرى تهيج على الفتى ومن عادة المحزون أن يتذكّرى[٢]

وهذا وقفاً على الرحيل (المؤقّت).. في العزأ والفراق من المكان، كما قال الأول:

رَحل الحبيب وحسن صبري قد رحل فمتى يعود إلى منازله الأول
وتضيء أرض أظلمت من بعده وتقر[٣] عيني باللقاء.. قبل الأجل

أي: بخاصة إذا ما ربط بالمكان القطان، كما قال العباس بن الأحنف:

فيا ساكني (شرقيّ دجلة) كلّكم إلى القلب من أجل[٤] الحبيبِ .. حبيبُ

و.. قال صقر قريش (عبد الرحمن الداخل)- مؤسس الدولة الأموية في الإندلس -:

أيها النازح الميمم أرضي اقْر من بعضي السلام لبعض
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

.. فقديما قيل: من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها توّاقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة، .. جاء في الاثر المشهور- صحيح المعنى-: (حب الوطن من الإيمان). والإنسان الضميري حبه لوطنه لا يضمر ولا يزول ولو عانى من ظلمها[٥]!

.. ولعل - هذا - بسطاً للعنوان التالي:

---

(١) و.. الأرق: طارد النوم.
(٢) النابغة الجعدي- رحمه الله -
(٣) تقر - من القرار - : أي تسكن.
(٤) أجل، .. صدق ذلك الهائم، بقوله:
أمرّ على الأبواب من غير حاجة لعلّي أراكم، أو أرى من يراكم!
(٥) ألم يقل مصطفى الرافعي - بيته المشهور - :
بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام

"البكـــاء"(*)

بـدءاً:

يقولـــون عيـــبٌ بكـــاء الرجـــل ... فـــــوالله قـــــولهم زوراً وبهتانـــــا
لـــو فقـــدوا مـــا فقـــدت لبكـــوا ... كمـــا تبكـــي الأرامـــل الحزانـــى
بكيتـــك وأبكيـــك عنـــد التـــذكرةِ ... فالبكـــاء يزيـــل أو يخفـــف الأحزانـــا

ديننا العظيم و(الكامل) يتعامل مع البشر بحسب تكوينهم البشري من ضعف وتأثّرٍ وتفاعل.. الخ. ومن هنا فلا يُنكر الحُزن على فراق غالٍ، أو غياب عزيز، ولا يتعارض-منهجه- مع ما تبثه المشاعر (العامة)، أو في : العواطف التي تأتي من المواقف .

.. وهذا ما يجعل الرسول (البشر) ﷺ، يبكي على قتل أصحابه رضي الله عنهم، وتذرف دموعه على ابنه (إبراهيم)، ويقول : {يا بن عوف[1]: إنها الرحمة}.

- يعـذلني (السَّـفيه) علـى بكـائي ... كـأني مُبتلـى بـالحزن وحـدي[2]-

---

(*) .. وقد تقدم (إيجازاً) قول العجلّي:

لا تلمني على (البكاء) عليـــه ... إن فقد الخليل خطبٌ جليل

(١) مُجيباً: (عبد الرحمن بن عوف) ﷺ - أو : سيّد المسلمين-

(٢) عبد السلام بن رغبان – المعروف بـ (ديك الجن)-

ويقول عمر بن الخطاب ﷺ: (كنت أضحك مرة، وابكي[١] من أخرى من أمور الجاهلية، أضحك من صنم لي كنت أعبده، صنعته من تمر فإذا جعت أكلته، وأبكي من ابنة لي أحفر لها لأدفنها حية، وأدسّها[٢] في التراب، وهي تنفض التراب عن لحيتي).

وحديثاً.. أذكر للشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - (في برنامج : نور وهداية)، وكلما ذكر أحد بناته - وكيف تُوفيت.. - تهدّج، بل وأختلط أو غاب معظم كلامه خلف الدموع.

فهي - أي الدموع- لا تعيب ولا تخدش وقار الرجل، كما ولا تقلل من الإيمان والتسليم!، فهي .. كألم نزعٍ لأحد الجذور من القلب.

.. لعل سبباً آخر يغري العين بالبكاء.. كأن يأت ولدٌ على كِبر، ثم يموت - كما في حالة الرسول ﷺ مع ابنه إبراهيم-، أو يموت عزيز عليك ميتة غدر ! أو ظلم، أو قهر ..، فأنت تبكيه، أو تدمع لذكراه، غالبا: كلما ذكرت (السبب) لا جزعاً.. أو دفعاً للموت- الذي هو مكتوب وما عنه مهروب:

لابـدّ مـن فقـد، ومـن فاقـدٍ هيهـات[٣] مـا في الـدنيا مـن خالـد-

هذه حال، والحالة الأُخرى : كحال فرق البكاء على فقد الصغير وفقد الكبير، فإن البكاء - هنا - يختلف قوّة أثره للكبير طبعاً، وذلك أن جذر الصغير لم يتعمق بالقلب مثل عمق جذر الكبير .. أو هكذا المعنى!

---

(١) ونورد هذا حتى لا يُظن أن البكاء وقفا على الضُعفاء والنساء، أو لدى ذوي ضعف المشاعر!، بل هناك كتاب إسمه (التداوي بالبكاء) لحسن بامعيبد، .. أوعز فيه تعليلا: " أن النساء أطول عمرا، لأن الرجل يكبت مشاعره.. التي تتحول إفرازاتها إلى سموم تتراكم لديه، حتى تبلغه الأجل.. سريعاً"!.

(٢) كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل٥٩) .

ويحاكي هذه الصورة، أو تذكر بضحك خديجة رضي الله عنها، عند روى لها ورقة بن نوفل (في صباها) قصة الرجل الذي رأى الثعلب يبول على إلهه، ولم يستطع أن يمسّه بسوء، فأنشد فيه :

أربٌ يبول الثعلبان برأسـه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ!

(٣) .. وهذا (لبيد) رحمه الله يقول لابنتية ساعة احتضاره :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل انا إلاّ من ربيعة أو مضـر

- .. أي كما مات قومي/ ربيعة ومُضر-، ثم .. ينصحهما بعدم الجزع :

فقوما وقولا بالذي تعلمانـه ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعـر
وقولا هو المرء الذي لا صديقـه أضاع، ولا خانٍ الصديق ولا غـدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتـذر

ثـمَّ :

هل تمعّنت يوماً، ولو فلسفياً عن سبب هذا البكاء على موت غالٍ، مثلاً! أو فقد عزيز، أو فراق حبيب.، أو خسارة (مالية)، أو تحطّم حلم.. أو-حتى- غدر صاحب..؟!

و.. الله أعلم/ أن هذا التعبير أي : (البكاء) أو دوافعه:

أنّك.. وعندما تفقد عزيزاً- أو أيّ مما تقدم - ، فانت عندها تنتزعه من قلبك ووجدانك، فتحتاج لهذا إلى عملية (شاقة) لإنهاء هذا، و هو ما يُعبّر عنه ظاهرياً بالبكاء .

ومثلاً: (لو) - وهذه المفردة لا بأس بها لأنها للمستقبل[1] – أقول:

لو بُتر (لا قدر الله) أحد أعضاء جسدك ، فما هو تعبيرك بعد ذلك؟ أكيد هو البكاء، والتوجّع[2] من جرّاء هذا.

فهكذا تؤول بك المشاعر، بخاصة وأنت موقن أنك لن تراه إلا يوم (المعاد)، كما يُملي المعري:

وعلمت أن لا معاد قبل يوم (المعاد)

.. فيزلزل وقع فراقه كيانك، ويهز وجدانك. هذا إن لم يأته من القواعد!

وسوى هذا أي: (عدم البكاء) ، ذاك الذي لا حِراك في مشاعره، فهو:

كالميّت الذي لا يحرّك شيئاً في راكده، ولو وقع الصخر عليه من علٍ،وأدنى من ذاك حالةُ الوسط، والتي تُغالب من خَبِر الدُّنيا [1] كما يُعبّر (طاهر زمخشري) – ١٣٣٢/ ١٤٠٧-هـ رحمه الله:

---

(١) .. انظر في ثنايا هامش (٣) ص٧٨ .

(٢) أو هو صدىً: لدويّ حلم (هوى) من ملكتك، أو وَهَنْت قُدراتها عن تحقيقه!

أبكـي وأضـحك والحـالات وآحـدة　　أطـــوي عليهـــا فـــؤاداً شـــنه الألم

فـإن رأيـت دمـوعي وهـي ضـاحكة　　فالـــدمع مـــن زحمـــة الآلام يبتســـم

ثم إن هناك تعليل آخر : إن (البكاء) على فقدان الشيء، هو :

إخراج ذاك من القلب وقد تمكّن منه، ولأن عملية الإخراج تحتاج إلى عمل مُضنٍ كيما تستطيع بتر جذره من عروق القلب، من هنا تتهاوى قدرة المقاومة إلى أدنى درجاتها، فتسكب العبرات من القلب، والدموع من العين، والأحزان تطفوا بدورها على المشاعر، والآلام تشجّ الكيان..

وعندما تبداء العملية الفعلية لبتر ذلك العضو (الحبيب، القريب .. العزيز) من جذوره بالقلب!.. فلا تجدك إلا خاوي القوى ضعيف القدرة، تُسلّم مع وهن الذات أمام لحظة الوداع والفراق و(هذا) داخلياً، أما خارجياً تُعبّر عنه بالبكاء .

لما.. لا، .وهو يَنزف من أحداقنا دمعه دمعه[٢] ويُبتر من قلوبنا جذوة جذوة.. وينسلُّ من بين أيدينا عضواً عضواً..!

حتى عبّر عن حال الفاقد.. عبد السلام بن رهبان- زافراً -:

لـو كـان يـدري (الميّـت) مـاذا بعـده　　بـــالحي منـــه..، بكـــى لـــه في قـــبره

غُصـصٌ تكـاد تفـيض منهـا نفسـه　　ويكـــاد يخـــرج قلبـــه مـــن صـــدره

فما (البكاء) حينها إلا تعبيراً ظاهرياً لأن ألمه وميضٌ بالقلب، ولهيبَهُ إحمرارٌ بالوجه، ونزيفهُ دمعٌ بالعين، وعبيره ماءُ المقلِ!

وهذا ترشيد عما نثره فقيد القلم: (مصطفى الرافعي) - رحمه الله - :

(لما قيل مات، جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل!

---

(١) .. كما قال المتنبي : **إنـــي لأعلـــم واللبيـــب خبيـــر**.. الخ

(٢) أو كـ (**دمعة نزلت على خدّ.. دمشق**)- كذا .. رثى إبنه نزار، وجثمانه عائدٌ من المعركة-

فإن الكلمة التي تأتي بالمصيبة لا تأتي بمعان لغوية.. كغيرها من الكلام، بل أسلحة.. تضرب النفس والعقل وتُثخنهما جراحاً وفتكاً).

لكن بعدها.. هاك قول المتنبي :

ستألف فقدان الذي أنت فاقد كإلفك فقدان الذي أنت واجد!

قال نصر بن سيار – وقد تقدم -: (كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر)، وهنا أتى الحديث : { إنما الصبر عند المصيبة الأولى }- فهذا مدرك، .. لأن كل فاقد (بعدها) يسلى!-، ودلّ حديث أم سلمه رضي الله عنها على هذا، قالت سمعت رسول ﷺ يقول :

{ ما من عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول : (إنّا لله وإنا إليه راجعون)، اللهم أجرنا في مصيبتنا، وأخلفنا خيراً منها، إلا أجره الله تعالى في مصيبته، وأخلف له خيراً منها} ثم .. قالت : (فلما توفي أبو سلمة.. قلت ذلك، فأخلف الله تعالى خيراً منه، وزوّجني برسول الله ﷺ) رواه مسلم.

وأذكر .. من سمت الصالحين أو أخذناه (تطبيقاً) من (جدتي)[1] ووالدة أمي .. حين توفي زوجها (جدي)[2]، وفي أيام العزاء . كانت هي التي تُصبِّر أبناءها وبناتها، وتنهرهم عما يبدر من الفاقد خارج مألوف الحزن - انظر ثنايا ما يأتي ص ١٠١ -، وتقول: "هذه (أمانة) ربنا أتى بها.. وأخذها".

وأفيض بهذا، وإن كان المفقود قبلُ بعيداً بجسده [3]، إذ يكفي أنّك تتحسسه، أو تجده- ولو اتصالاً-

---

(١) نوره بنت عبد الرحمن المطلق – ت ١٤٠٠هـ- رحمها الله رحمة واسعة.

(٢) عبد العزيز بن عبد المحسن المطلق – في حادث (فجائي) سنة ١٣٩١هـ-

(٣) .. وكما قال الأول : (أسعد الله قلوباً إن وصلناها شكرت، وإن قصرنا عذرت).

إذ (ليس كل لقاء مودة، ولا كل غيبة جفوة)، قال الإمام أحمد: (لنا إخواناً لا نراهم إلا في كل سنة مرة، نحن أوثق بمودتهم مِمَن نراهم كل يوم)، فـ:

يعلم الله أنكم لو نأيتم أو قربتم.. أحبّ شيئاً إلينا[١]

لأن غيابه (الحسي) قد لا تُلقيه بالاً، طالما أنك تتحسس أنفاسه وتلمس وجوده، ولو كان بعيداً، مصداقاً لقول الشاعر :

أبلغ أخاً في ثنايا القلب منزله أني وإن كنت لا ألقاه.. القاهُ

وأن طرفي لموصول برؤيته وإن تباعد عن سكناي سكناهُ

ولأدلي.. بـ/ حُكم - البكاء - في (الشرع) :

أجل: أُجيز البكاء على الميّت (حال)الموت وبعده[٢] - لكن (بعده) خلاف الأولى-

وهذا البكاء فقط[٣] بذرف الدموع وحزن القلب[٤]، كما قال رسول الله ﷺ:

{ إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنّا[٥] على فراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: إنّا لِلهِ، وإنا إليه راجعون}[٦] ، وروى (مسلم): وكان يفعل ذلك ويقول : { تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب} ، بل وقال : { فلتبكي .. البواكي على جعفر } .

---

(١) أجل، .. وكذا قال ابن زيدون:

بنتم، وبنآ فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم، ولا جفّت مآقينا

(٢)- أي: ذاك الذي لا يتبعه نياحة ولا شق جيب .. الخ -

(٣) .. فلا يتعدّى هذه (الرخصة).

(٤) .. لا النياحة، التي نُهينا عنها-. بحديث { ثلاث في أُمتي من أمور الجاهلية لا يدعونها: منها النياحة على الميت}- وقوله ﷺ من أمور الجاهلية، هي كناية في النهي عنها ، بل وغلظ كما عند مسلم : { اثنتان في الناس هما بهما كفر، الطعن في الأنساب والنياحة على الميت}.

(٥) و.. لأنه : ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء،٩٣) كما قال الله في رسوله الأعظم ﷺ، فإنه يخالط مشاعره هذه العاطفة، واجتهاده في (إنسانيته) ظاهر.. كما وضّحه في قوله عليه الصلاة والسلام : {اللهم هذا قسمتي في ما أملك.. } الخ.

(٦) أخرجه البخاري ١/٤٣٩ .

ومن دعائه ﷺ : { ومن اليقين[١] ما تهوّن[٢] به علينا مصائب الدنيا.. } الخ.

وقد رأى عمر ﷺ امرأة تبكي على (خالد بن الوليد) ﷺ، فقال :

(على مثل أبي سليمان فلتبكي .. البواكي).

- ولـو شـئت أن أبكـي دمـاً لبكيـتُ عليه، ولكنَّ ساحة (الصّبرِ)[٣] أوسعُ-

ثم .. أو (التنبيه) على أن :

ما كل من ولّى يُبكى عليه، وإن أخذ من الدنيا مقاماً ظاهراً لا يمارىء فيه، وفي الحديث: { إنه ليأتى بالرجل العظيم يوم القيامة، وهو لا يساوي عند الله جناح بعوضه!} ، ثم قال : { واقرأو أن شئتم: ﴿لَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] رواه البخاري .

سِوى الفقد المفُقد لمن ولاّه، كموت[٤] مصلح أو داعية خير، أو رجل برٍّ ..الخ.

قال العابد (إبراهيم بن أدهم) - ونسبت للإمام السيوطي- رحمهما الله:

إذا مـا مـات ذو علـم وتقـوى فقـد ثلمـت مـن الإسـلام ثلمـة

ومـوت الحـاكم العـدل المـولّى بحكـم الأرض، ..منقصـة ونقمـة

ومـوت فتـى كـبير الجـود محـل فـإن بقائـه خصـب ونعمـة

ومـوت العابـد القـوام ليـل ينـاجي ربـه في كـل ظلمـه

مـوت الفـارس الضـرغام هـدم فكـم شـهدت لـه بالنصـر عزمـة.. إلخ

وما ذاك إلا لأن دموع الإنسان غالية، قال (أبو الحسن الندوي)[٥] - رحمه الله-:

---

(١) استرسالاً : اليقين[*] مراتبه ثلاث، كل واحده أعلى مما قبلها: أوّلها علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر. ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة ف (القرآن) وصفه الله في سورة المعارج بأنه " حق اليقين " فاليقين : أعلى مراتب العلم - وهو العلم الثابت وهذا (حق) اليقين أي أعلى مراتب اليقين أعلاه - أنظر تفسير السعدي لسورة (الحاقة)-

(*) .. لا كما يراه بعض (الصوفية): أنها منزله متى بلغها (العبد) سقط عنه التكليف!- كما سيأتي ص١١٣-:

(٢) أي .. يكون لدينا في قوة إيماننا بك، أنه : الثابت الذي لابدّ من وقوعه، فلا نجزع.

(٣).. وأنظر ثنايا ص ٩٨- فيما يأتي -.

(٤) وكم أحسن ذلك الشاعر حين عزى البكاءُ .. إلى :

يُفقد الخيّرون والنبـلاء وعلى مثلهم يكون البكـاء

(٥) .. في كتابه (الذائع الصيت): " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

((إن دموع الإنسان لأعزُّ من أن تفيض كل يوم على ملك راحل وسلطان زائل، وإنه لفي غنىً وشغل عن أن يندب من لم يعمل يوماً لإسعاده، ولم يكدح ساعة لصالحه – أي : (ذلك العَالم) -، وإن السماء والارض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التي تقع كل يوم، ووقعت ألوف المرّات ﴿ كَمْ تَرَكُواْ [١] مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ [٢] عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الدخان ٢٥-٢٩) .

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلاًّ على ظهر الأرض، وويلاً[٣] للنوع الإنساني[٤]، وعذاباً للأُمم الصغيرة والضعيفة، ومنبع الفساد والمرض في جسم المجتمع البشري، يسري منه السمّ في أعصابه وعروقه، ويتعدى المرض إلى الجسم السليم، فكان لابد من عملية جراحية، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده عن الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين ورحمته ، يستوجب الحمد والإمتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية، بل من جميع أفراد الكون ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنعام ٤٥))) أ.هـ .

نعم .. ما كل من مات يُبكى عليه، قال أبو الطيب :

وأعــز مُــن فقــدنا مَــن وجــدنا قُبيــل الفقــد مفقــود المثــال!

---

(١) قال تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(يس ٣٠).

(٢) فـ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾(فاطر٨) أجل .. وربي!

(٣) .. من (ويل) أي : وعيد، وقيل: هو وادٍ في جهنّم – أعاذنا الله منه -

(٤) هل تعلم أن أحد هؤلاء (القادة) ذهب على يديه أكثر من ثلاث ملايين نسمة!!

واسترسالاً:

فإن البكاء – كما تقدم ختم ص٨٧- له دواعيه ومسبباته ، وكما يُعرف عنهُ: أشجان وشجون [١] ..

أَمِنْ تذكّر جيران بذي سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلةٍ بدمٍ [٢]

على أن تلك البكائيات – إن صحّ لنا هذا الوَسْم – خلفها.. أو آتٍ غالبها من رقّةِ النفس، أو حين يداعب الذاكره الحنين، أو بعضُ تجليات تُلامس منّا أعزّ ما لدينا:

وكنتُ إذا سألتُ قلبي يوماً ... أناب دمعي عن قلبي الجوابا [٣] **!**

.. أو لعلّها.. عوداً على مآل ذا .. الحالِ !

يا نفسُ دُنياكِ تُخفي كل مُبكية ... وإن بدالكِ منها حُسن مبتسم [٤] .

فننتهى، أو تنتهي عندها، الآمالُ!، قال أبو العتاهية - رحمه اللّه-:

المرء يرغب أن يعيش ... وطول عيش قد يضرّه

- أي بما يطرق .. ويجدّ من فتن وغيرها -

.. إذ البكاء .. بالأصل:

---

(١) وكذا قال (حافظ إبراهيم) :

وآهاً على دارٍ مررت بها ... قفراً، وكانت مُلتقى السُبل

أرخصت فيها كل غالية ... ووقفت أندب فيها على الطلل!

(٢) البوصيري .

(٣) أحمد شوقي.

(٤) البوصيري.

(تعبيرُ ظاهريُ عما يُحسّه المفارق)، أو قُل: ما يعتصره داخلياً!

فمَن مَاتْ صديقه أو قريبه فاحتسبه عند الله؛ فليبشر بالحديث الذي رواه الرسول ﷺ عن ربّه : { ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم أحتسبه جزاء إلا الجنة} رواه البخاري.

لكن – وكما تقدم في هوامش ٩٢ - يحرم الندب والنوح[١] ، وضرب الصدر ونحوه، كما قال ﷺ:

{ ليس منّا[٢] من ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية}[٣].

و .. عليك (حينها).. بما وجّه إليه حبيبك ﷺ: إذا ما بلغك وفاة صاحبٌ (لك)، أو حبيب أو أخ في الإسلام، أن تقول كما جاء عنه ﷺ في صحيحي البخاري ومسلم: عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما اقل : أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه تدعوه، وتخبره أن صبياً لها، أو ابناً في الموت، فقال للرسول : { أرجع إليها فأخبرها: أن لِلهِ تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجلٍ مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب} الحديث.

وقرّر عليه من ربه أزكى صلاة وأتم تسليم أنّ :

---

(١) النوح : (البكاء على الميت .. حتى يبكي الباكي غيره) – قال أبو العتاهية :

نـح على نفسك إن كنت تنـوح لتموتنّ وإن عُمّرت ما عُمّر (نـوح)

(٢) أي : ليس من المؤمنين بالله الراضين بقضائه، وليس من المسلمين المسلّمين لإرادته جلّ وعلا.. وقدره!

.. ومثل هذا (الحديث) يجلي معنى: (الإيمان يزيد وينقص)- والله أعلم -، .. وأيضاً في مثل معناه ما جاء في الحديث :{ لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن}– أي ليس عندها: مكتمل الإيمان-

(٣) أخرجه البخاري ١/٤٣٦.

{الموت فزع[١]، فإذا بلغ أحدكم وفاة أخيه.. فليقل: " إنّا لِلهِ وإنا إليه راجعون، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم أكتبه عندك في المحسنين، وأجعل كتابه في عليين، وأخلفه في أهله في الغابرين، ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا[٢] بعده} [٣].

بل ننبّه للحديث الذي تقدم .. في قوله ﷺ : {الصبر عند المصيبة الأولى}.

وإليك هذه (النادرة): لما ماتت امرأة الفقيه (أبي ربيعة)، دفنها ونفض يديه، ثم رجع إلى داره فحوقل[٤]، واسترجع، وبكت عيناه!

.. ولم يكن من هديه- عليه الصلاة والسلام – بكاؤه بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، كذلك لم يكن من هديه الوقوف عند قبر الميت، أو أن يُجتمع للعزاء ويُقرأ له القرآن، فكل هذا (بدعة) حادثة. - وإن نحى ذلك بعض المتأخرين اقتضاء للمصلحة الظاهرة، في عدم حبس ذوي المتوفّى حتى ينقضي وقت العزاء ثلاث الأيام الأولى-

ثمَّ .. وبعد (هذا) أي بمن ابتلى بفراق عزيز - وبعد أن :

رضينا[٥] بحكم الله صبراً وطاعةً وإن فتّ أكبادا وأهرق أدمعا

.. يُوصى بالتالي :

---

(١) ومما يبلغه أهل الجنة - من نعيم أنهم (لايفزعون)... الخ .

(٢) من قول ابن مسعود ﷺ: (من كان مستناً فليستنّ بأصحاب محمد، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٥٩/١٢.

(٤) أي يقول (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وهذا دعاء عظيم شُرع لنا قوله.. مع كل آذان- بعد/ حي على الصلاة.. حي على الفلاح – بل إن الملائكة لما أعياها حمل العرش، قال المولى سبحانه وتعالى لهم: قولوا (لا حول ولا قوة إلا بالله).. فحملوه بإذن الله، وقد فسّره (ابن عباس) ﷺ : " لا حول بنا على العمل بالطاعة إلا بالله، ولا قوة لنا على ترك المعصية إلا بالله ".

(٥) أو.. كما قال محمد إقبال – رحمه الله - :

أية المؤمن أن يلقى الردى باسم الثغر سروراً ورضا

أي : إن دليل الإيمان الظاهر: الرضى بالقدر – خيره.. وشرّه -

أولاً : (الصَّبـر) (*):

فهو أعظم متكاء في النوازل، بخاصة حال الفقدُ، ومن لحظاته الأولى { الصبر عنه المصيبة الأولى} ، كما في الحديث.

وهذه الخلّه العظيمة، والتي ذكرها الله بالقرآن في مواضع شتى، والحديث عنها وفّى وكفّى .. هي مناط العقلاء في كل حال، وبهذا الحال على وجه أخصّ.

وأدلى بالثناء على من حازها الصالحون وبها أخلصوا ووفّوا نُصحاً، واسترشاداً، ودليلاً على حُسن أثره .

قال عمر بن الخطاب - ﷺ - : (إنّا وجدنا خير عيشنا بالصبر)، وقال أيضاً: (أفضل عيش أدركناه(٢) بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال لكان كريماً)، وقال علي(٣) بن أبي طالب - ﷺ - (ألا إن الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بار الجسم).

وقال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله - : (ماأنعم الله على عبدٍ نعمة، فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزعه).

(*) قال ابن ظفر الصقلي :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه	**ويُعرف عند الصبر فيما يُصيبه**
ومن قلّ فيما يتقيه اصطباره	**فقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه**

وشاهد البيت .. الأول .. في قول أهل السّير:

(إن الرسول ﷺ يبلى على قدر مقامه عند ربه)- وهكذا جاء معنى حديث : { يُبلى الناس على قدر إيمانهم.. } ، ف ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ(*) فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الرعد ٢٤).

(*) قال الإمام محمد عبده – رحمه الله - : (انتصر على غدر الزمان بطاعة الرحمن).

(٢) وكما قال الشاعر :

وربما نيل باصطبار	**ما قيل هيهات لا يكون**

(٣) وقال فيه أيضاً (الصبر مطيّة لا تكبوا).

وقال سليمان بن القاسم: (كلّ عملٍ يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾(الزمر ١٠)، قال : كالماء المنهمر).

هكذا نعزي أنفسنا آن فقد أحبابنا[١] – رحمهم الله، ورزق ذويهم الصبر والسلوان – وذاك من بعد: (الحمد لِلهِ على قضائه وقدره، وإنّا على فراقهم لمحزنون...) ، وكما قال (زكي السالم) :

(إنّـا إلى الله) قـول نسـتعين بـه ... على الرزايا، ففيه راحة الجسد

فمن أجلّ عدّة الإيمان (الصبر على البلايا)، قال الشافعي :

ومـا الـدهر إلا هكـذا فاصـطبر لـه ... رزيّـة مـال أو فـراق حبيـب

.. ولعل من المفيد – بعدها-: التذكير بالقول المأثور : (من أراد البقاء فليوطّن[٢] نفسه على المصائب):

ولا خـير فـيمن لا يـوطّن نفسـه ... على نائبـات الـدهر حـين تنـوب

لأنه إذا ما طال بأحدٍ (عمره) وامتدّت به الأيام، لقي منها أوجاعاً مضاعفة من رحيل[٣] أعزّاء حلّ أجلهم، أو أمراض تخرم جسده.. الخ.

---

(١) وكما.. قال (د. العشماوي) :

رحيل أحبابنا ناراً مؤججـة ... تُذيب أكبادنـا وجداً وتصيلها..

(٢)حتى قيل بمثل صاحب هذا (الحال) :

دهتـه (مصـائب) طحنتـه طحنـاً ... وللـدنيا رحـىً عُظمـى طحـون

مصـائب يُـذهلُ التعـبيرُ عنهـا ... وتعجـز عـن صـياغتها اللّحـون

(٣). وكذا استشهد البخاري - حين نعي إليه الدارمي (رحمهما الله) - بقول الراثي :

أن تبقُ تُفجع بالأحبّة كلهم ... وفنا نفسك لا أبالك أفجـعُ

فهو أي :

المـرء رهـن (مصـائب) لا تنقضـي حتـى يُوسّـد جسـمه في رمسـه

ومن هذه الـ (مصائب) ما عناه أبو العتاهية - وقد تقدم - :

المـرء يهـوي أن يعـيش و(طـول) عـيشٍ قـد يضـرّه

ولهذا، فإن من فضل الله- التي لا تغيب لطائفة - أن رزقنا نعمة (النسيان)، .. وإلا لما هنيء أحد بملذّة! وإن كان من تعليلٍ، فمن قول الشاعر :

(مـا سُـمّي الإنسـان إلا لنسـيه) - ولا القلـب قلـب إلا مـن تقلّبـه[١] -

ثانياً : (الاحتساب) :

ولأن حالة الإنسان غالباً حزينة على ماضٍ فات[٢]، أو أمل لم يتحقق[٣]، أو خوف (فراق) وشيك، كما علل الحسن البصري، حين سُئل: لما لا تُصاحبنا؟ بـ يقال : (أخاف الفراق)!

فلا مناص له من احتساب ما لا يقدر على دفعه - كما في حديث ص٩٦- بعد القبول والرضا، قال عمر ﷺ : (أيها الناس احتسبوا أعمالكم، فإن من أحتسب عمله كُتب له أجر عمله، وأجز حسبته).. وأعظم صور الاحتساب: النظر في حق الميّت من قِبل ذويه بخاصة، وذاك:

---

(١) وعند الإمام أحمد حديث: { إنما سمي القلب قلب من تقلّبه }.

(٢) .. قال (محمود غنيم) – رحمه الله - :

إني تذكرت، والذكرى مؤرّقةً مجداً تليداً.. بأيدينا أضعنـاه

(٣) .. بما يُقارب تحسّر الشاعر :

ومن نكد الأيام أن يبلغ المنى أخو اللؤم فيها، واللبيب يخيبُ

بأن يُصلّى عليه ويُشيّع لمثواه، ويدعو له بالمغفرة والرحمة والسماح والإباحة (له)، كما وحقُّ أهله وذويه أن يُعزّوا لفراقه، ويُذكّروا بواجب - مع (الصبر)- الاحتساب[١]، طلباً لما عند الله من الأجر، ولسان الحال يُردد قول (الشافعي) :

إنّي معزيك[٢] لا إني على طمع ... من الحياة، ولكن سُنّة الدين

فلا المُعزَّى بباقٍ بعد ميّته ... ولا المُعزي، ولو عاشا إلى حين

ولهذا قال (عبد الرحمن بن أبي بكر): " من أحب البقاء فليوطن نفسه على المصائب".

ولما عاد ﷺ : (مُعاذ بن جبل) في مرض موته بكى وبكى الصحابة، ثم قال : {إن الله لا يُعذّب بهذا- أي (البكاء)- لكنه يُعذّب بهذا- وأشار إلى اللسان[٣]- أو يرحم}، أي في التفريق بين الجزع، والبكاء - هذا، مع تقدم ص ٩٤-

---

(١) وذكر ابن كثير في تاريخه، قول علي في طلحة رضي الله عنهما: (يعزّ عليّ أبا محمد أن أراك مضرّجاً، ..) الخ - في/ موقعة الجمل-، ثم قال أسأل الله أن أكون وإياك ممن قال الله بهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧]

(٢) .. وهذا معنى طرقه المتنبي – لسيف الدولة – بـ :

لا يحزن الله الأمير ... فإني أخذ من حزنه بنصيب

(٣) يروى أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي أجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن ادم من العيوب؟ فقال : هي أكثر من ثمانية آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملها سُترت، حفظ اللسان.

ثالثاً : (الرضا)[*] :

أي بالقضاء والقدر، والتسليم – .. فلا رادّ لقضاء الله وقدره،

وقد جاء نموذجاً في السيرة : (أنَّ أم سليم إمرأة أبي طليحة مات ابنها، فقامت وغسّلته وكفنته، ولما أتى زوجها إستقبلته كعادتها وقدّمت له زاده، ولما قضى منها وطرهُ، قالت له : لو أن قوماً أعطوك أمانة، وعادوا يستردّونها ألا تُعيدها لهم؟ قال بلى، قالت: إن صاحب الأمانة[٢] استردّ أمانته) ، فلما علم الرسول ﷺ قال : {لقد بارك لكما في ليلتكما} ، و رُزقوا أولاداً كلهم حفظوا كتاب الله، وذاك نتيجة (الرضا) والتسليم، وفي الأثر : (من رضي بقدري أعطيته على قدري).

وهذا الموقف الذي بلغ منتهى (الرضا) وعدم الجزع، يذكّر بجواب (الأحنف بن قيس)[٣] – رحمه الله- ، حين سُئل: ممن تعلمت الحلم؟ قال :

(من قيس بن عاصم المنقري، إذ كان يُحدّث قومه، فدخل عليه ابنه.. قائلاً :

إن ابن عمي قَتْل أخي، فقال : إذهب إلى أُمّك وأعطها ديته.. الخ ، وعاد فأتم حديثه على قومه) – وهو الذي قال به[٤] زهير بن أبي سلمى:

وما كان هلك (قيس) هلكا واحدا ولكنه بُنيان قوم تهدّما

رابعاً (التأسّي) :

بقوله ﷺ : {[٥] تعزو عن مصائبكم بي} رواه أحمد- وتقريبه : النظر في حال كلّ من حوله ، وهل هناك أحد منهم لم يفقد عزيزاً عليه، أو قريباً إليه.. من الوالدين أو أخ أو صديق.. الخ.

الأسوة: من الأسي: أي الطبيب - الذي يصف لك الدواء- ، وقد قيل :

إذا لم يكن أحدٌ باقيا فإن التأسّي دواء الأسي

وجلّى عدي بن دريد .. لهذا :

أيها الشامت المعيّر بالدهـ ـر، أأنت المبرأ الموفور؟!

ثم .. أو نُردف بعدها - .. على (العزيز) – ببعض التالي (تأبيناً أو في ذِكْره) :

(*) هي درجة (من تتساوى عنده العطيّة والبلية) وقلّ من يبلغها - ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ١٣]-

(٢) وكما عبّر عن هذا (لبيد بن ربيعه) : **وما المال والأهلون إلا (ودائعٌ) ولابد يوما أن ترُد الودائعُ**

(٣) الذي: أوصه الرسول بـ : {أن مع العزّ ذلا وإن مع الغنى فقرا..} الخ، وهو: أحلم العرب، ويُضرب به المثل، حتى أنه تواضع حين سُئل : هل أنت حليم؟ وقال " لا، لكني أتحلّم"، أي مؤثرا لنفسه معنى الحديث: { إنما الحلم بالتحلم}.

(٤) .. حتى سُطر له (المجد) بعد وفاته ، حين رُثي بـ : **عليك سلام الله (قيس بن عاصم)**.. الخ

(٥) .. وكما أفضت في هامش (٤) ص ٢٥٧ .

(شمائـل) من سبق(*) :

.. كما فعل أسلافنا العِظام، فذاك أربط الأمّة جأشاً (أبو بكر) الصديق ﷺ ، (١) وهو يودّع صاحبه، وينعاه إلى الثقلين - فيقول في كلمته المشهورة، معزّياً الأمة في فقد قائدها العظيم ﷺ:

(مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت) ثم تلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (ال عمران ١٤٤) .. لا، لا انقلاب لأن الرسالة باقية يُبلّغها السلف للخلف-، فنحن نُسلّم لقضاء الله بـ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر ٣٠).

وهذا، لأنه ﷺ أعظم مَن رزئنا، من أمره(٢) لنا كما تقدم: { تعزّو عن مصائبكم فيّ } ، وصدق الحق- من أنه لابد له ﷺ من الرحيل - ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنبياء ٣٤)!

وإن أكّد معناها الآخر حسان ﷺ بقوله :

ومـا فقـد الماضـون مثـل (محمـد) ولا مثلـه(٣) حتـى القيامـة يُفقـدُ

(*) وانظر في هامش (١) ص٣٦.

(١) .. بعد أن أكبّ عليه، وقبّله، ثم قال : (طبت حيّاً وطبت ميتاً)، وأردف بـ: (هي موتتك الأولى، ولن تموت بعدها).

(٢).. وأخرج ابن عساكر أن أبو بكر ﷺ كان إذا عزى ختم قوله بـ (.. إذكروا فقد رسول الله ﷺ تصغر مصيبتكم، وأعظم الله أجركم).

(٣) وروى البيهقي مرسلاً: (خرجت امرأة من الأنصار قتُل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا : خيراً، هو بحمد الله كما تحبين! قالت : أرونيه حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك غير جلل). =

وهذا معناه أن : (المصيبة) تستمد عظمتها وضخامتها من عظمة المصاب الذي يضفي عليها من قدره جلالاً وعظمةً، حتى كأن الموت لم ينزل بنفسٍ قبله، قال الحكيم (المتنبي):

وأفجع من فقدنا.. من وجدنا ... قُبيل الفقد مفقود المثال

- وقيل أيضاً :

اصبر لكل مصيبة وتجلَّد ... وأعلم بأن المرء غير مخلدِ

وإذا ذكرت مصابك متألماً ... فاذكر مصابك بالنبي محمدِ-

.. فالِلهِ الحكمة البالغة.. أن يأتي هذا (النعيُ) له ﷺ من أحب الناس إليه بل و{أعظم الأمة إيماناً} - كما في الحديث- وأقربهم منه (أبو بكر)، لكي (يقطع به قول كل خطيب).

.. وقد أجاد توظيفاً لهذا (المعنى) أبو العتاهية بقوله :

أشدُّ الجماعة في وجده[1] ... أشد الجماعة في طمره[2]

ثما.. وتثبيتاً للأمّةِ التي كان عمر ﷺ – وهو (فاروقها) – يقول عن الآية التي تلاها أبو بكر: (أنه لكأنه أوّل مرّة يسمعها)!

= بل وأسمى من هذا، حين رُفع خبيبا ﷺ على الخشبة ونادوه يناشدونه : أتحب أن محمداً مكانك؟ قال : (لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يُشاكها في قدمه)، فضحكوا منه - البداية والنهاية: ٦٣/٤-

(١) الوجد : أي (الحزن)، ثم .. وهذا معنى سُبق إليه، قال عمرو بن معد يكرب :

كم من أخٍ صالح ... بؤاته بيدي لحدا

(٢) .. ومن السّنه حين (الطمر) القول مع حشية التراب الأولى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ومع الثانية : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ومع الثالثة : ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

وما ذاك الا لهول الفاجعة، وشدّة الخطب الذي وصفه رسول الله إبّان حياته فيما تقدّم .

... واسترسالاً: فقد أبّنته ابنته (فاطمة) رضى الله عنها بـ :

(يا أبتاه أجاب ربّا دعاه، يا أبتاه مَن جنّة الفردوس مأوه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه) - صحيح البخاري-

ولها شِعرُ أيضاً، ترثي والدها - عليه من ربه أزكى الصلاة وأتمّ التسليم-.. ومنه/ هذه الأبيات[1] :

اغبّـــر آفـــاق الســـماء وكُـــورّت	شمـــس النهـــار وأظلـــم العصـــران
فـالأرض مـــن بعـــد الـــنبي كئيبـــة	أســـفاً عليـــه.. كـــثيرة الرجفـــان
فليبكـــه شـــرق الـــبلاد وغربهـــا	وليبكـــه مضـــر وكـــل يمـــان
وليبكـــه الطّـــود المعظـــم جـــوّهِ	والبيـــت ذو الأســـتار والأركـــان

وتقول أروى بنت عبد المطلب عمة رسول الله :

بكـــت عـــيني وحُـــقّ لهـــا البكـــاء	علـــى سمـــح ســـجيته الحيـــاء

ولا عجب - والحق ما شهد به الأعداءُ-: أن يُعدّه البرفسور الأمريكي (مايكل هارت) أو يصنّفه: الشخصية الأولى .. الأكثر تأثيراً في التاريخ البشري،

(١) وقد أثبت لها صحة الأبيات الأديب الكبير (عبدالله بن خميس)- صحيفة: الجزيرة عدد ٤٦٢.-
كما، وعدّها الأستاذ عبد البديع صقر – في كتابه (شاعرات العرب) – من شاعرات العرب، وترجم لها هناك (رضي الله عنها)..
فلا غرو، وهي من الفصاحة والبلاغة والبيان في الصميم، فمن أي ناحية توجهت وجدتها تضرب بسهم غائر ونصيب وافر في فُصحاء القوم ونُبهائهم.

وذلك في كتابه المشهور : (المائة شخصية الأكثر تأثيراً في التاريخ) - ..بل العجب كل العجب: أن لا يكون الأول هو ﷺ، أي: من يكون إن لم يكن هو!؟[1] -

ثم.. إنسحب هذا الصنيع (الحسن) أو فعل قدوتنا مع سلفنا الصالح، .. كتأبين عليّ لأبي بكر :

(واسيت رسول الله حين خذله الأقربون، وصدّقته حين كذبوه)، حتى قال: (الضعيف عندك قوي حتى تأخذ له حقه، شأنك الحق وعزمك الصدق..)، ثم ختم:

(.. ولن يُصاب المؤمنون بعد رسول الله بمثلك..) الخ.

أما عمر ، فقد قال ابن مسعود ﷺ : (كان إسلامه عزّاً، وكانت هجرته نصراً وكانت خلافته رحمة)، وكذا قول ابن عباس لعمر – حين طُعن -: (أسلمت فكنت للإسلام عزّاً ، ..) الخ.

وأخرج الطبراني " عن ربعي بن حراش قال استأذن عبدالله ابن عباس على معاوية رضي الله عنهم وقد علقت عنده بطون قريش وسعيد ابن العاص جالس عن يمينه، فلما رآه معاوية مقبلاً قال : يا سعيد، والله لالقين على ابن عباس مسائل يعي بجوابها، فقال له سعيد : ليس مثل ابن عباس يعي بمسائلك، فلما جلس قال له معاوية : ما تقول في أبي بكر؟ قال : (رحم الله أبا بكر، كان -

(١) وأتمم بما .. قال - تعليقاً - (د. خضر الشيباني):

" ولسنا بطبيعة الحال بحاجة إلى مثل تلك الشهادة فيما يتعلق بالمصطفى ﷺ، ولكنها حقيقة ينبغي إبرازها للدلالة على نجاح العقل البشري في إقرار الحقائق عندما يتحلّى بالموضوعية، ويحتكم إلى المعايير العلمية الدقيقة .. الخ " .

والله - للقرآن تالياً ، وعن الميل نائياً، عن الفحشاء ساهياً ، عن المنكر ناهياً، وبدينه عارفاً، ومن الله خائفاً ، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، ومن دنياه سالماً، وعلى عدل البرية عازماً، وبالمعروف آمراً وإليه صائراً ، وفي الأحوال شاكراً، ولِلهِ في الغدو والرواح ذاكراً ، ولنفسه بالمصالح قاهراً، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً وزهداً وعفافاً وبراً وحياطة وزهادة وكفاءة، فأعقب الله من ثلبه اللعائن إلى يوم القيامة).

قال معاوية : فما تقول في عمر بن الخطاب؟ قال : (رحم الله أبا حفص ، كان - والله - حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان ومعاذ الضعفاء، ومعقل الحنفاء، للخلق حصناً، وللناس عوناً، قام بحق الله صابراً محتسباً حتى أظهر الله الدين وفتح الديار، وذكر الله في الأقطار والمناهل وعلى التلال وفي الضواحي والبقاع، وعند الخنى وقوراً، وفي الشدة والرخاء شكوراً، ولِلهِ في كل وقت وأوان ذكوراً، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة).

قال معاوية رضي الله عنه : فما تقول في عثمان بن عفان ؟ قال : (رحم الله أبا عمرو، كان - والله - أكرم الحفدة ، وأوصل البررة، وأصبر الغزاة، هجاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر الله، دائم الفكر فيما يعنيه الليل والنهار، ناهضاً إلى كل مكرمة، يسعى إلى كل منجية، فراراً من كل موبقة، وصاحب الجيش والبئر، وختن المصطفى على ابنتيه، فأعقب الله من سبه الندامة[1] إلى يوم القيامة).

---

(١) ونقول: ايضاً من قتله، فهذا الصحابي الجليل والذي قضى بـ (الفتنة): =

قال معاوية : فما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال : (رحم الله أبا الحسن كان - والله - علم الهدى، وكهف التقى، ومحل الحجى، وطود بها..) الخ"[١]

وإفاضة (ضرار الصدائي) فيه - أي: علي - ، حين سأله معاوية ﷺ :

يا ضرار صف لي علياً ﷺ ؟، وآفية ..

فكان مما قاله : (.. كان والله بعيد المدى ، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه) .. إلى أن قال : (ويقول : يا دُنيا، غرّي غيري ألي تعرّضت، أم إليّ تشوّقت؟ هيهات[٢] هيهات! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق!) ، فبكى معاوية ﷺ وقال : رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال : (حُزن من ذُبح واحدها في حجرها)[٣].

وكذا قول معاذ بن جبل (يا أبا عبيدة، لأثنين عليك ولا أقول باطلاً أخاف أن يلحقني بها من الله مقت : كُنتْ - والله - ما علمت من الذاكرين الله كثيراً، ومن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما،

= عن هلال بنت وكيع، عن امرأة عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - قالت: أغفي عثمان - ﷺ- فلما استيقظ قال : إن القوم يقتلونني، قلت: كلا يا أمير المؤمنين، قال (رأيت رسول الله - ﷺ- وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما قالوا: افطر عندنا الليلة) أو قالوا (إنك تفطر عندنا الليلة). رواه ابن أبي شيبة، وابن سعد في الطبقات.. والله تعالى أعلم.

(١) - ص ١/٤٩ من حياة الصحابة (للكان دهلوي)-

(٢) أي : (بعيد) جداً .

(٣) الأمالي لأبي علي القالي رقم (١٢٧٨) ص ٤٠٠- .. وانظر تمامها ص ١٦٠-

ومن الذي إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً، وكنت والله من المخبتين، المتواضعين، الذين يرحمون اليتيم والمسكين ويبغضون الخائنين المتكبرين).

وكذا قال الحسن البصري – رحمه الله - :

(إذا أردتم أن يطيب المجلس، فأفيضوا في ذكر عمر).

فما هذه الشهادات إلا منهجٌ وأسوة لنا في ذكر أهل الخير وحمدُ جميليّ الصنائع.. فنقول بفضل أهل الحمد، ونعرف من له قدم صدق، ونُطري من بالإحسان قدّم ، وعلى الفضائل أقدم.. الخ.

ثم ، .. وما ذاك إلا نزرٌ من نماذج ما عُهد عن أولئك من (وفاء)- كما سيأتي عنه ص ١٢٣، فما بعدها-.. مع حفظٍ لحقوقٍ لهم على من بعدهم، وبهذا قال الإمام مالك: (لن يصلح أمر هذه الأمّه، إلا بما صلح بها أولها)- فـ ياربِّ:

إبعث لنا من مثلهم نفراً يشيدوا لنا مجداً كالذي[1] شادو-

لكن الشاهد بـ / أن نسلّم لما هو أولى في الاستعداد لهذا (القادم)[2]. بالعمل، والجدّ، .. أولاً: بنزع الدنيا من قلوبنا - حالما أدركنا أن ليس بها خالد[3]-

---

(١) والأصل - كما تقدم ص٢٧ - بأن : (نبني فوق ما صنعوا) - .. وأقلّه : مثل ما صنعوا-

(٢) وأهل الحِكم قالوا : (استقبال الموت خير من استدباره)!- أي : في الاستعداد له.. -

(٣) لأن الخلود أحد مطمع بني آدم، كما وسوس الشيطان لأبونا آدم بـ (الشجرة): ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (طه ١٢٠) .. الآيات-، قال (امرىء القيس):

=

وقد فطن لهذا الصالحين فحثّوا بـ : أن يبكي المرء على ما فرّط في جنب الله، قبل أو حال حضور الأجل - .. كما تقدم في ص ٧٣-، وتقريبُ هذا:

(لما حضرت معاذ بن جبل ﷺ الوفاة، بكى فقال من حوله: يا معاذ يا صاحب رسول الله ﷺ: أتبكي فرقاً من الموت؟، وذكروا شيئاً من فضائله، قال :

لا والله، لا أبكي فرقاً من الموت، لكن أبكي لفقداني قيام ليالي الشتاء الطويلة، وصيام الهواجر، ومزاحمة العلماء بالركب)[١]

وفي الحديث : { يا عبدالله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل}.

ومما يستفاد من هذا : المداومة[٢] على العمل الصالح، وعدم التثبط في إتمام عمل الخير، دخل إبراهيم بن أدهم على أحد إخوانه يعوده فوجده يزفر ويتأسف فقال له، علام تتأسف؟ فقال له : (على ليلة نمتها لم أصل باليل فيها، وعلى يوم أفطرته، وعلى ساعة غفلت[٣] عن ذكر الله تعالى).

وقد قال تعالى - في المداومة- ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر٩٩] أي : الاجل، قال أبن القيم - في معنى هذه الآية-: (إن الله لم يجعل للعبادة أمد محدد

= مِن كـــل ما نال الفتـــى نلتـــه .. إلا التحيّـــة !

أي : الخلود، والتحية هي أول لفظة في التشهّد (التحياتُ لِلهِ) أي الخلود – وقيل معناها: الملك، وكلاهما لِلهِ: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(غافر ١٦) -

(١) " بتصرف من كتيب بعنوان (وجاء الشتاء)".

(٢) لحديث : { أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل}.

(٣)- قال ابن القيم (إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتض ذلك وظيفته)- ، - أي بما يتفق زمنه.. بأمرٍ من أوامر الشرع-

إلا الموت).. أو طبعاً حال الخرف.. في بلوغ درجة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل٧٠]، .. لا كما وصفها بعضُ أهل التصوف[١] - أي اليقين: (أنها درجة من بلغها سقط عنه التكليف).. و أبسط رد على مثل هذا الفهم - السقيم-.. لو كان صحيحاً: لفعل هذا عثمان رضى الله - حين جهّز جيش العسرة - فقال ﷺ : { ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم} ، فما داخله من ذلك غروراً ، .. بل زاده إيماناً وتثبيتاً. وهذا هو الفقه الحقيقي، وصحة الإيمان الخالية من شوائب سوء الفهم.

فالمطلوب : هو الفرح بطول العمر للتزوّد ، كما أمر المولى بـ ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة١٩٧]، .. مرّ علي ﷺ بالمقابر، فقال : (يا أهل المقابر، أما النساء فقد تزوجن، وأما الأموال فقد قُسّمن، وأما الدور فقد سُكنّ ، فهذا خبر ما عندنا، فما خبرُ ما عندكم؟)، ثم التفت إلى من حوله وقال : (والله لو نطقوا لقالوا: ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (البقرة ١٩٧)، و دخل الوليد بن عبد الملك المسجد، فرأى شيخاً، فقال له مداعباً : إلا تُؤثر الموت يا شيخ؟ فقال:" لا يا أمير المؤمنين لقد ذهب الشباب وشرّه، وأتى الكِبر وخيره[٢]، وها أنا إذا قمت الآن حمدت الله وإذا قعدت ذكرته، وأُحب أن تدوم لي هاتان الخلتان ".

لا كموعظة أبي العتاهية .. البارده في حق الحي :

أهـــل المقـــابر أحـــبتي بعـــد الجذالـــة الســـرور

---

(١) والله سبحانه حين مدح للرسول من الصالحات قال ﴿قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ﴾ [النساء،٣٤]، والقنوت: أي : المداومة على الطاعة، .. ولعل هذه سقطة لدى بعض أهل التصوّف، وسقطة أخرى - كما سيأتي (هامش (٢) ص ٢٥١)-

(٢) ف (ربّ رغّبني بما يبقى، وزهّدني بما يفني).

بعـــد الغضـــارة والنضـــارة والتـــــنعّم والحبـــــور
أصـــبحتم تحـــت الثـــرى بـــين الصـــفائح والصـــخور

ثم .. يلتفت مؤكداً ، ليقول :

أهـــل المقـــابر لابـــدّ إلـــيكم عاقبـــة الأمـــور

وهذه المنقبة هي التي وعاها ثلّة ممن عرفوا الأثر الباقي من الأعمال والحسنات بعد الممات، فـ: تركوا ورائهم ما يتمم لهم إحسانهم، كما قال ﷺ: {إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه..} رواه ابن ماجه وابن خزيمة .

ولما توفّيت إبنة أحد الصالحين، رأها بالمنام تقول له (يا أبتِ نحن هنا نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله الذي لا إله إلا غيره، إن قول " سبحان الله" رأيناه خيراً من الدنيا وما فيها).

تأكيداً لحديث:{ما من أحد يموت إلا ندم إن كان أحسن لما لم يتزوّد؟، وإن كان مسيء، علام أساء؟} ، .. وأجاب حين سُأل ﷺ: عن الإيمان، فقال : { إذا سرّتك حسنتك، وسأتك سيئتك فأنت مؤمن}.

ثم عليك[1] أن تترك وراءك ذكرى طيبة لتنال "الثناء" من شهود الله.. في أرضه.

فعن أنس ﷺ قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ : {وجبت}، ثم مروا بجنازة فأثنوا عليها شرًا، فقال ﷺ : {وجبت} فقال عمر ابن

(١) - وهذه إفاضة (لابد منها) إعمالاً لنفسك.

الخطاب ﷺ: ما وجبت؟ فقال : {هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض} [متفق عليه].

ومن ثم.. لتهنأ أخي المؤمن حين تحوز هذا (الثناء) في الدنيا -- وهو عاجل بشراك-، والجنة في الآخرة - إن شاء الله- مثواك.

وأهمس (لي) .. ولك بـ :

(دقات) قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان[1]

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عُمر ثان

كذا قال، ونظم بل.. قل (أوصى) أحمد شوقي - رحمه الله -

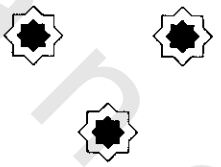

(١) وفي معناه جاء قول ابن القيم:
(بسط الله العمر بالأيام، وبسط الأيام بالساعات، وبسط الساعات.. بالأنفاس.. الخ).

obeikandl.com

(طبت حيّاً وميّتاً)[*] :

نقولها لثلّة علّمت بنا في حياتها وعلمتنا أن نُحبّ الناس، ونُحسن إليهم، وعكست لنا بعد رحيلها كيف يأتي جميل الذكر، وكيف تكسب طيّب القول، تنال صادق الدعاء مشيّعاً بعطف وشجن، كما هو الحال لدي، مع من (نقش) في قلبي ذكراه [٢] كالشخصيات الخاصة، ومنهم :

الخال (مطلق بن عبد العزيز المطلق) المُتوفى سنة ١٤٠٤هـ رحمه الله، فكم أثّر كثيراً عليّ رحيله ، ولم يسعفني وقتها قلمي الذي (لم يشبّ بعدُ عن الطوق) والا لما خلته يبخل بحق هذا (العزيزُ) فيّ أثره عن أن أُثري عنه، فإن لذاك الشخص وسحنة تلك الشخصية (ذكرى) خالدةً فيّ .. لا تُمحى (مطلقاً) من القلب،مع مرور الزمن، فقد كان جمٌّ من اللطف والرفق والابتسامة، عليه شأبيب الرحمة[٣]، وأيضاً .. مما أزلفني إليه هذا (الثناء) لأُثنّي به على مقام الوالده (رقية بنت محمد التويجري) رحمها الله - المتوفاة في عيد الفطر ١٤١٠هـ - .. والتي تعلمنا منها أبجديات السماحة واللطف، وأبقت من طيفها فينا.. ذلك (الخالد) عنها، من: حُسن تعامل، وإحسان عمل، وكذا ابنة عم الوالد[٤]: (نوره بنت عبدالله المطلق)، وغيرهم[٥] الكثير والكثير.

---

(١).. كلمة: لأبي بكر الصديق، ، قالها بعد أن قبّل جبين المصطفى ﷺ قبلته الأخيرة - وجثمانه الشريف مُسجّى- .

(٢) .. وانظر إيمائه لما تقدم – في ص ٣٥-

(٣) ولعل في هذه الأسطر تفي عن تقصيرٍ سابق.. بحقّه .

(٤) .. وحرم مقام الخال (محمد الجربوع) – والتي قضت.. وهي في طريقها لحجّ بيت الله، في ذي الحجة/ ١٤١١هـ-

(٥) .. ك الخاله: مزنة (أم حماد) ت ١٤١٤هـ- رحمها الله -، وكذا (الغاليه) ابنة أخي (منى العبد العزيز) رحمها الله .. والتي لم تغب عنّا روحها الطاهرة والسماحة التي كانت عليها ظاهرة..، ثم ولن أسترسل في ذكر الأعزاء ممن رحلوا، فهم كثُر! حتى كدت أن أقع بقول توسيدس : (الأموات موضع اطراء) .

كما ولا أنسى إثباتاً - هنا - نيف (موادٍ) تاهت قبل أن تبلغ دُور النشر، كمادتي في زوج الأخت الغالي: (صالح بن عبد العزيز الحماد) رحمه الله - المتوفى عام ١٤١٦هـ-.

وكذا شخصيات (عامه) قضت ولم أحظ بمعرفتهم .. إلا بعد الرحيل - أو فيما تركوا من بصمات- كما سيأتي في ٦ ص١٣٠-، وفي طليعتهم:

(أحمد عقيلان) و (حسن آل الشيخ) [١] و (د. عبد الرحمن الباشا)، والمرشد (عمر التلمساني) وفارس التراث.. أو عَلَمهم في القلب: (محمود شاكر) [٢]، كما .. ولا أنسى (ناصر الدين الألباني) و(ابي الحسن الندوي) وعلاّمة الجزيرة - الغزير- (حمد الجاسر) رحمهم الله.. الخ،مما.. أو حتى لو أطلقت لقلمي العنان.. فلا أستطيع عدُّ أسمائهم، وأجزم أن هناك (ممن يستحق.. ولا أعرفهم) من قُرب.. ولكن (الله يعرفهم) .. كذا عقب الفاروق [٣]- عليهم جميعاً شآبيب الرحمة-.

لكن خاصّةُ هؤلاء أنهم من الشخصيات النفيسة في عصرنا، ودُررٌ من عقدنا، وأعلام فخرنا، فلطالما كانت بألقها تجتذبني كيما أتعرّف عليها عن قُرب.. لكن ظرفي أو قل تقصيري نحوهم.. لم يواتي لي الفرصة!

مما يحتّم عليّ القول- ولو بعد كل تلك الأعذار- على كل أحدٍ منهم:

ويا خجلتي إذا قالوا: مُحبّ ... ولم أنفعك في خطب أتاكا

أرى الباكين فيك معي كثير ... و(ليس من بكى كمَن قد تباكى) [٤]

---

(١) لكن لعلي أحيل القارىء، إلى كتاب الوفي (حمد القاضي) عن ذاك المِعطاء: (الإنسان الذي لم يرحل).

(٢) .. وإن حظيتُ بمعرفتهم، إبّان حياتهم - من خلال مؤلفاتهم، انظر مثلا : ثنايا ص ٢٤٩- مع هامش (١)- .. بالإضافة إلى من أبّنَة من الشعراء في الجزء الثاني من كتابي : (ديوان البيان) - ك/ الحجي، والجواهري والبردوني، .. ثم ختامهم المسيطير، والذي بنيتُ عليه مقولة: فيما تقدم ص٣٥: " إرحل لكي نراك ".

(٣) وكما سيأتي / ص١٢٣.

.. لكن عزائي - مع التقصير-: أنهم لقوا ممن هم أسمى من قلمي عطاءً. ومكانة، ما يُسطّر لهم بماء الذهب، .. إذ كانوا أعزّ من الذهب.

(٤) .. انظر فيما تقدم : ص ٣٣- مع هامش (١).

بل ولو .. وددت أن أسرد لاحتجت (ربما) أضعاف هذه الصفحات لكن حسبنا انهم آلو إلى مليك مقتدر، عساهم بلغو ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر٥٥] عنده كما وعد، ولفضله نالو ﴿مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء١٠٢]

وأخصّ – بعد كل ما تقدّم-: (والديَّ) – رحمهما الله - :

غاب تحت (الثّرى) أحبّاءُ قلبي فالثرى وحده الحبيب الخليل

ف: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء ٢٤).

وإن حسبت لقلمي بعض ما أسعفه – لأمي (رثاء متأخر) ص١٤٩ – فما بعدها-، .. و لأبي - في كتابٍ مستقلّ (هذا أبي).. كما نوهت عنه سابقاً-

ثم/ أو عندما يُسافر عن فضاءاتها عزيز غالٍ، لا تجدك إلا مردداً:

ما أقسى أن نرى صفحة الثرى - وقد قال ﷺ : {ما رأيت منظراً أفظع من القبر} - الذي غاب أو غُيّب فيه العزيز (بين الصفائح والصخور)، ف .. لا ولن نراه!، فكيف يمكننا تصوّر (فظاعته)، وفيه الحبيب، أو: وهو يحوي جثمان.. الغالي !.

قال (أبو ماضي) :

ما للقبور.. كأنما لاسا كنٌ فيها .. وقد حوت العصور الماضية

طوت الملايين الكثيرة قبلنا ولسوف تطوينا وتبقى خالية

أين المها.. وعيونها وفتونها .. سحقتهم كفّ القضاء القاسية[1]

---

(١) .. القاسية: أي (القدر) الذي أمضاه الله على جميع خلقه: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء٧٨]، .. فلن يشذ عنه ملك مقرب، أو ذا سلطان عزيز!.

ولكن نعودِ لنأكد: أن (العزاء) فيه حقٌ بما ترك وخلّف من ذكرٍ وذكرى، ومن برٍ وتقوى، أو في استجابة منه لنحيبٍ أو شكوى، بخاصة لمن ضيم في ظروف معاشه. فكان له يدٌ.. أو شفاعة، إما بصنيع خير وجميل عطاء، أو لفضل ما أسدى.

.. كما أن العزاء الأجلى: أنه رحل وكلّنا راحلون ، و.. كلنا ذائق (الموت) .. فلا يبقى سوى : ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الرحمن ٢٧) .

وكما قيل :

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يحثّ بها حاد من الموت قاصد

وأعجب شيء لو تأملت أنها ... منازلُ تُطوى، و (المسافر) قاعد

ولو لم يكن هذا الإيمان العميق في قلوبنا، لظللنا نستعيد أحزاننا، ونسكب الدموع من مآقينا على كل من غادرنا!، وما حال (مُتمم بن نويرة) - في رثائياته لأخيه (مالك) .. وأمثالها - بما يأتي (ص١٢٥)- إلا ممن ينسحب عليه هذا القول، بل لما عتب عليه عمر ﷺ على هذا بـ : أن (ما أخي زيد بن الخطاب بأعزّ عليّ من مالكٍ عليك ولم أشجي فراقه، كما فعلت)! فقال : (لو مات أخي كما مات أخيك.. لما جزعت عليه)!

فقال عمر : (ما عزّاني أحد بأخي كما عزّيتني) [1].

و لا يغيب عنّا (مَثلُ) الخنساء – رضي الله عنها -، فقد ظلت تندب أخيها وترثيه شعراً عمراً ليس بقصير [2]، و لما أسلمت، واستشهد عندها أبناؤها

---

(١) وذاك أن زيداً ﷺ قتل مُسلماً، بينما مالك أخا متمم مات كافراً.

(٢) كقولها المشهور :

يُذكّرني طلوع الشمس صخر ... وأذكره لكل غروب الشّمس

وأذكر لأحدهن .. تقول عن والدتها - أو ما يُذكّرها إيّاها- :

" كلما هبّ هواء مغارب رمضان لتكسر قارورة الوقت في حنايا روحي وتستعيد لي عبير كفاح أمي بعطره النفاذ.

(الأربعة) – رحمهم الله – في القادسية، لم تزدْ على القول : (الحمد لِلهِ الذي شرّفني بمقتلهم)- .. فأي فارق بين الحالين [١]؟!

.. وذاك لأن المؤمن يدرك أن هناك لقاء آخر واجتماعٌ خالد، فهو معزّىً به.. بذلك.

وقد أعجبني تعليل أحدهم لحديثٍ أخرجه مسلم: { الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر} :

" هذا الذي حدّثنا به الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، فـ : المؤمن في الدنيا حين يلتزم بأوامر الله، ويتجنب ما حرّمه الله عليه هو في سجن بالنسبة لما ينتظره من نعيم الجنة في جوار الله تعالى، وإن كان يعيش في نعيم وراحة بال. والكافر حين يخالف أوامر الله ولا يلتزم بشرعه هو في جنة بالنسبة لما ينتظره من عذاب الآخره [٢] وإن كان يعيش في ضنك وضيق".

.. أوجز عباس العقاد - عن الإنسان في دُنياه - :

ويشقى المرء منهزماً ولا يرتاح مُنتصراً

وأَجزل الإمام أحمد – رحمه الله -: (الراحة في أول قدم تدخل الجنة).. كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فاطر ٣٤) فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في أي من ملذّاتهم، و : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فاطر ٣٥) أي : لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى.. الخ، وفي الحديث ترغيباً [٣] لها وزهداً عما سواها: { .. وموضع سوط أحدكم في الجنة، خير من الدنيا وما فيها}.

فـ (المسلم) - بهذا - ينفرد بفضائل كثيرة، منها أو أجلّها:

---

(١) .. بل وقالت: (إني كنت أبكي صخراً للموت، وأبكيه الآن خوفاً النار).

(٢) وهذا تقريباً لحديث رواه مسلم: {يُأتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيغمس فيها غمسة وأحدة، ثم يُسأل: يا ابن آدم هل رأيت نعيماً قط، فيقول: ما رأيت نعيماً قط..} - أو كما ورد -

(٣) وانظر في ص ٦٧/ ٦٨ .

أنه عندما يموت ويستوفي عُمره المقدّر له، يُقدم على ربّ كريم[١]، يُعطي الجزيل ويغفر الذنب العظيم- إن شاء الله – كما قال سبحانه في الحديث القدسي {أنا عند ظن عبدي بي}، ولا يبلغ هذا إلا من (أحسن الظن) به، .. وهذا: يُضاف إليه محامد ما ترك من أثر طيّب وذكرٍ حسن مقروناً بالدعاء – وانظر ص٢٦، فما بعدها- ، فحاله (بعدها) حال:

أهل (السّيرة) العطرة - .. وكما سيأتيَ عنهم (تأبيناً) - : لقاء ما أثّروا، أو ما خلفهم تركوا.

.. ولعل ما ورد في ثنايا (الدعاء) للميت.. - حال الصلاة عليه- ما يجبر.. أو يُخّف على القلوب إثر فقده!

فـ(صفة الدعاء) الواردة للميت بعد التكبير الثالثة: "اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا إنك تعلم منقلبنا ومثوانا، وأنت على كل شيء قدير. اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام والسنة، ومن توفيته منا فتوفه عليهما"، (هذا يقال لجميع الأموات). ثم يزيد عليه إن كان ذكراً: "اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله وأغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس (وأبدله داراً خيراً من داره وزوجاً خيراً من وجه- خاص بالرجل فقط)، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار، وأفسح به في قبره ونور له فيه".

وورد: اللهم أنت ربه وأنت خلقته وأنت قبضت روحه وأنت أعلم بسره وعلانيته، جئنا شفعاء إليك فاغفر له، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله[٢].

فإن كان المُصلّى عليه أنثى قال: اللهم اغفر لها (بتأنيث الضمير)... إلخ-

.. وإن كان المُصلّى عليه صغيراً قال: "اللهم اجعله ذخراً لوالديه وفرطاً – أي سابقاً- وأجراً وشفيعاً مجاباً، اللهم ثقّل به موازينهما وأعظم به أجورهما والحقه بصالح سلف المؤمنين، واجعله في كفالة إبراهيم عليه السلام، وقه برحمتك عذاب الجحيم".

---

(١) .. وانظر ما تقدم – ص٧٦-

(٢) وورد أيضا: (اللهم إنك خلقته وأحييته ورزقته وأمته فاغفر له، اللهم إن هذا عبدك ابن عبدك نزل بك وأنت خير منزول به فاغفر له، اللهم اجعل قبره روضة من رياض الجنة، اللهم مد له في قبره مد بصره، اللهم اجعل جليسه في قبره العمل الصالح، اللهم إن كان مسيئا فاغفر له، وإن كان محسنا فزده إحسانا وتوفيقا، اللهم اجعل هذا اليوم خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه).

الـ (وفـــاء)

الكثيرون ممن إذا فقدوا عزيزاً.. رددوا قول الشاعر - .. وقد تقدم - :

و (المـــوت) نقّـــاد علـــى كفّـــه جـــواهر.. يختـــار منهـــا الجيـــادا

أوفي التمثّل بقول الآخر :

إلى الله أشـــكو.. أن كـــل قبيلـــة من النـاس قـد أفنـى الحِمام خيارها

وهذا (جدلاً) أو (حقيقة) ليس كذلك، وذاك أن الموت : يصيب كل طبقة من الخلق .

.. لكن المرمى (هنا) : أنه لا يُعرف، أو لا يُذكر غياب أحد من تلكم القبيلة أو الجماعة إلا من يستحق، فيظن من لا يبلغه .. سوى رحيل مثل ذلك أنه:

لم يمت منهم إلا الـ (أخيار) .. الأبرار[1] .. الأطهار!!

وإليك ما يُعزّز هذا في منهاج الرسول ﷺ ما يقتدي به من وَدَّ.. جادةً صالحة للحياة - هي الأقوم دائماً -.. كحديث: { أوصاني ربّي .. إلى أن قال: وأن أصل من قطعني} ، وليست بأن تصل من وصلك[2]، وهذا التوجيه الكريم والمنهاج العظيم ذو علاقة بموضوع الوفاء، فالصداقة وما تعنيه من وشائج بين الناس تُكتسب، أي مما تمليه على القلوب سجيّة الحياة والإنسان.

---

(١) الأبرار : هم من برّوا بآبائهم وأبنائهم - كما أنها صفةٌ لأهل الجنة ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ (الانفطار ١٣) - والمربين يقولون .. في الإيثار: أنك متى استطعت أن تُصغي لمصائب الآخرين دون أن تَسرد لهم (بالمقابل) مصائبك، فقد بلغتها-

(٢) فما ذاك .. إلاّ عمل المكافيء ، لا الفاضل – إذا .. فأين درجة التفاضل؟.. التي نادى بها الشاعر:

إن كنت لا أعفو عن الذنب من أخ وقلت أكافيه، .. فأين التفاضـــل؟

فتطمع أن تبلّغك بك ذاتك مقام من حَمد له المولى بـ: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت : ٣٤

.. قال حسان ﷺ :

وكـــل أخ يقـــول أنـــا وفيٌّ ولكـــن لـــيس يفعـــلُ مـــا يقـــول

ســوى خِـلٌّ لـه حسـبٌ ودين فـذاك لمـا يقـول هـو الفعـول

وللوفاء سيكولوجية تسبقه وتواكبه وتليه، ومن ذلك أن الوفاء استجابة طبيعية لداعي العلاقة المتمثلة إما في صداقة حميمة، أو ذكر غالٍ.. الخ.

و.. الحسُّ به آتٍ نداءهُ من داخل النفس، فـ : يستجيب له، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾(ق ٣٧).

والاستجابة (تلك) مردّها أن جذور العلاقة بُنيت على أخلاق وقيم يعززها الالتزام بدواعيها – لا .. تلك المتكئة على المنفعة[1] فقط، قال الإمام الشافعي.

ولا خـــير في ودّ امـــرىء متلـــون إذا الريح مالت، .. مال حيث تميل-

و.. نحن أهل هذه المهنة – وأضم نفسي معهم من باب المجاز - .. ليس لنا وسيلة إلا القلم كما أنَّ " **القريض وسيلة الشعراء** "

فعدت أتوكأ عليه، بحثاً عن مفردات إزاء (الموت) و .. وقعه!

ثم :

فـ : هذا ليس كتاب ، بل كُتيّب – أو رسالة – ليس فيها بسط يوازي مقام أولئك.. سوى تذكير، وتنبيه للغافل، أو تعريف للجاهل.

---

(١) .. حتى يقول الشاعر : بمن ربط اواصر علاقته.. بهذا، لقي هذه :

إذا نافست في (الدنيا) قريبا فأوّل من يُعاديـك القريـبُ

قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الذاريات ٥٥)، فالمسلم لا يألوا جهداً للتعريف لأخيه المسلم بمن له (يدٌ) صدقٍ في الدنيا والإبداء عنه أو التذكير به..

- لأنَّ سلْم الحياة.. يرنّ بالأُذن :

(النَّـــــاس) في غفلاتهـــــم .. ورحـــــى المنيـــــة يطحـــــن-

وأيضاً .. فإننا نقول بما نعلم، ولنا الظاهر، وقد نُدبنا لهذا في الحديث الذي تكرر معنا: {أنتم شهداء الله في أرضه} فلا نحكم إلا بما نعلم : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴿٨١﴾ ﴾ (يوسف ٨١) ، ولذلك .. أو (هنا) ملحظ :

فإن إطلاق الصفات ووسمها بالآخر، هو من باب الأمل والرجاء – إن شاء الله – أن يكون مَن قيلت فيه لها أهلٌ، .. وذاك آتٍ: مما نعرفه والعلم عند الله، فنقول بهذا ولا نقطع أو نجزم!، فقد كان من سمت الصالحين إذا مدحَوا[1] أن يُتبعوا ما يقولوا – لمن يَمدحوا- بـ : (نحسبه كذلك ، والله حسيبه)!

ولعل من منابع (الوفاء) مما هو على المجتمع قاطبة:

ذكر من رحلوا .. ولو لم يُعرفوا من قِبل الغالب، وقد ذُكر لعمر ﷺ بعد أحد المعارك : (وقُتل فلان وفلان، وأُناس لا نعرفهم) فقال عمر: (لكنَّ الله يعرفهم)[2]!

وكذا.. تفعل صحيفة (الجزيرة) بزاوية[3]: [إلى رحمة الله].. وقد أحسنت (بهذا) صُنعاً، - فـ : تبدأ (الزاوية) استهلالاً :

---

(١) انظر في هامش (٢) ص ٢٢٠ .

(٢) وأحمدُ لتلفزيوني (الكويت، والبحرين) نمطٌ حسن في ختم الأخبار بـ (البقاء لِله) لذكر من قَضَوا، بعد ما قضَوا عمرهم في أعمال شهدت لها الأمة.

(٣) .. مادة يُعدّها للصحيفة الأخ: (عبد الكريم الرويشد) حفظه الله، وأجزل له المثوبة، وشدّ أزره.. في هذا وفي كل خير ينشده.

(أُدّيت صلاة الميّت على ١٠ جنائز يوم أمس بجامع : سليمان " الراجحي" بحي الجزيرة ..)الخ- وهذا نمط زوايتها تلك –

وهذا، وإن كان ظاهره وفاءُ فحسب، لكنه بالحقيقة من أقل حقوق أولئك: الذين قدّموا بين يدي الجيل عطاء لا يُهضم لهم، . وتركوا بصمة لا تمحى.. ورحلة ما جادة في الأذهان لا تُنسى..

حسبي الوفاء عزاء كل مفارق ... هو في حياة الوصل عُمرُ ثانِ

بـ(الذكر) يحفظ كل خلّ .. خليله ... ليس الوصال تقارب الأبدانِ

أجل، قال علي بن الجهيم :

وجربنا وجرّب أولونا ... فلا شيء أعز من الوفاء

أسئلة : (هل نسينا من كانوا معنا في الأعوام الماضية؟ .. و/ أنهم كانوا يتبادلون التهاني بالعيد والآن هم تحت الثرى وبين الجنادل يسكنون؟؟ أم هكذا هي أيامنا، ما بين فرح وترح وضحك وبكاء واجتماع وفراق ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال٤٤)، ولكن (الذاكرة) تحتفظ بتلك الوجوه وتلك الأسماء التي عاشت معنا عمراً طويلاً وبعدها رحلوا وتركونا في دنيا الزوال والفناء.)[1] .. صدى لا يُمحى أثره!، وبخاصة:

من أبقوا (بصمة) حسنةً في السيرة وفي السريرة.

- وقد أَمرنا ديننا[2] أن نقول للمُحسن أحسنت[3].. كما نعتب على المسيء:

إن أحسنوا، أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فلبئس ما صنعوا-

---

(١) .. كما قال الأديب (مناور الجهني) .

(٢) .. وهذا مكمن العدل - .. على الأقل -

(٣) .. حتى وإن أبدوا – في حياتهم – الزهد .. عن (المديح)! إذ .. هذا الزهد لا ينفي ما في دواخل النفس التي هي بحاجة إلى التكريم:

(وإن المرء ليأمل بأن يرى صدى لما قدم بين يدي حياته)، لأنه – ككل البشر- : يحتاج لإشباع حاجاته، من الإطراء والحمد على صنيعه، وشهادة إحسان ما فعله، وكذا : لعل في (تكريمه) وهو حي من زاوية أخرى: شهادة (له) على صواب منهجه، وقد عنون الأديب (عبد العزيز العسكر) مادته ثناءً على (د. حسن الهويمل) بـ : (تكريم الهويمل رد على من ينتقده).

.. أو أقل درجاته: أن لا نبلغ قول المتنبي:

غـاض (الوفـاء) فمـا تلقـاه في عِـدة ... وأعــوز الصــدق في الأخبــار والقســم

ثم.. وعلى حمدنا لهذه المزيّة – الوفاء - نُنبّه :

أن لا يكون فيها أو يَصحبها مُغالاة، كما في قول (عمران بن حطّان):

أنكـرت بعـدك مـن قـد كُنـت أعرفـه ... ما الناس بعدك يـا (مـرداس) بالنـاس!

أو منحى متمم - في أخيه مالك - :

لقد لامني عنـد القبـور علـى البكـاء ... رفيقـي .. لتـذراف الـدموع السـوافكِ

وقـالوا: أتبكـى كـل قـبر رأيتـه ... لقـبر ثـوى بـين اللـوا في الـدكادك

فقلت لـه: إن الأسـى يبعـث الأسـى ... فـدعني فكـل القبـور قـبر (مالـك)

.. أو تُذهب[1] إثرهُ.. لبّ الفاقد، فيقف خلف ثرى (المفقود)، فيكون حالهُ موت – قبل الموت! -، وقد أُمرنا .. مع الصبر والتسليم لقضاء الله إلى/ أن نقوم بحياتنا ونعود لمعاشنا[2].

فلا نُسرف بـ (الوفاء).. ولا نُغالي بالجفاء[3]، بل نتخذ: ونحن أُمّة (الوسط) بين ذلك سبيلا – أي طريقاً –

لكن .. وقد أدليت[4] عن الوجهتين بـ :

---

(١) فنذهل عن حق أنفسنا علينا!

(٢) وفي المثل الغربي آت.. بعد العزاء: (لنعش حياتنا)، فـ :

باق من الحزن أضعاف الذي ذهبا ... لا الجوع دهر، ولا كل الفصول صبا

(٣) أي نوقف قولنا على العدل لما هو أهلٌ له، فما الحمد : (الثناء والإطراء) والبكاء.. إلا لوعة الفقد! إذا ما وقفت عاجزاً أمام رهبة الموت، فما هذه أي : لحظة الفراق الشوكية الدامية بجديدةٍ على من خبر الحياة!!

قال المتنبي :

إني لا أعلم واللبيب خبير ... أن الحياة وإن حرصت.. غرور

(٤) صحيفة الجزيرة - عدد ١٢٧٦١- .. ما أحسبه كافٍ .

حقيقة أن الكتابة عن الشخصيات لا تستهويني كثيراً، بخاصة حال حياتهم مؤثراً سلامة النبز بالمصلحة أو المنفعة، على الوسم بالجحود أو عدم الوفاء. وكما أن المرء يقع بمثل هذا الحال بين ريبة المستصلح إن كتب أو تهمة (الجاحد) إن أمسك، فكذلك الحال موازية إن كتب و.. ثم قصر في حق من يكتب عنه، بل وأكبر الرزايا في هذا : إن كتب وتمادى في القول فيصبح كأنه وضع المكتوب عنه بمقام من ذم المولى (فئة) من تحب أن تحمد بما لم تفعل، فأني عندها يكون بمفازة عن اللوم من القارىء المقسط، وكيف يعتذر لمن مدحه فأسرف في الإثراء.. عنه !! ثم لأنك كلما استجررت أو أوغلت أخذتك العاطفة وخرجت من الموضوعية، وإذا ما تخليت عن العاطفة حال بك مدادك إلى النقد الصرف الذي قد يحسب عليك أكثر مما يحسب لك، ولو من خلال اجتهادك فيه، هذا إذا ما عددت ممن يجسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لكن - وقد جعل الله لكل شيء قدرا - المضي بميزان العدل والقول الحق هو السبيل الوحيد لكي تبلغ مرادك ولا يحسب عليك ما قد يخرج - تجاوزاً - من فيك. لكن - ومع هذا .. - فلا أخفي القارىء أن هناك شخصيات تأطرك على أن تقول بها ولو من باب رد بعض جميلهم إن لم يكن (دينهم) عليك.

(النمـوذج)(*)

.. كلما أقرأ تأبين لأحد.. أجدني مُردداً : (هذا والله الخلود الحق.. الذي عطف البنان أن ينشر عنه جبراً، لا عاطفةً فحسب) ما يوازي معنىً قال به الأول :

فيـا قـبر (معـن) كنـت أوّل موضـعاً ... خُـطّ في الأرض للسـماحة موضـعاً

نعرضه ، تذكيراً، - بخاصة من ينطبق عليه حقاً.. معنى :

إلى الله أشـــكو أن كـــل قبيلـــة ... من الناس أفنـى الحِمام خيارها-

وأُوجز: أن هناك ما يوقف لبابك من جميل بيان وناصية خطاب، تأطرك على ترديده أطراً، كما في الحديث : { إن من البيان لسحرا} كصنيع هؤلاء:

١/ .. جاء قول (أحدهم) في عزيز فقده:

(كم من "دعوة" صادقة – إن شاء الله – سوف ترتفع من قلب محتاج ساعدته، وبائس مسحت آهته، وضعيف شفعت له، ومغترب هوّنت كربته!

وهذا – ورب كاتب هذه السطور – هو (الكسب) في خسارة هذه الدنيا، وهو هتاف المطر في إجداب زمانها، وهو الرحيق الأبقى في لظى حرائقها، أجل : (طبت حيّاً ومَيتاً)، .. فـ : لقد كنت حبيب للجميع ناشر أشرعة البياض في وديان نفوسهم.

فـ : رحمك الله وغفر لك، واسأل الله أن يجمعنا وإياك في جنات ونهر: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ (القمر ٥٥) ...).

---

(١) والذي .. يُقال عنه في النثر (تأبين)، وفي الشعر (رثاء).

٢/ و : كهاتي التي كتبت[١] عن والدها – ولا أحسبها إلا صادقة:

(كريم النفس سخي اليدِ، فلقد كان بيته مفتوحاً تُسطّر أفعاله في الجود مع حاتم الطائي وهرِم بن سنان، والمكارم والمفاخر يصنعها (رجال) مثلك.. حيث كان من كرمه أن يعطي كل شيء ولا يبقى لنفسه إلا اليسير، ويصدق فيه ما قيل :

ولـو سُـئل الـنفس لجـاد بهـا ألا فليتـق الله سـائله

يفعل الخير ولا ينتظر ثوابه إلا من الله.. لا ييأس على ما فاته فإنه قد وطّن نفسه على الإيثار، وعوّدها على العطاء..

كان كالشمعة تُحرق نفسها لتضيء لغيرها، وطود الخير الذي يَلجأ إليه ذو الحاجة[٢]، ولا يزال هذا الطود قائماً أشمٌّ يتجسّد فيك، وبهذه الصفات تبوأت مكانة عظيمة في قلوب المحبين والأقارب والأهل).

- وإن كان في شيء مما سطّرته.. عاطفة ذرفت من ابنة[٣] في فقد والدها-

٣/ وقال آخر:

(وآلد الجميع بأبوته وحنانه، ها أنت.. كما كنت .. وما زلت .. غيمة مطر أسقت الأرض العطشى.. فلم تعد الأفواه منك ظامئة.. ولم يعد للأرض أن تحفرها تجاعيد الفاقة.. وليس للظّلام مجال أن يطوّق أُفق سمائنا.

---

(١) – بتصرف - : الجزيرة عدد ١٢٢٩٨-

(٢) فـ .. سألتكم الله: كم من ذي مترية (ودّ) لو كان يعرفه!، أو يعلم عن سجاياه تلك؟

(٣) .. لمثل ما جاء في المثل : (كل فتاة في أبيها مُعجبة)!.

تبوأت سرادق الحب .. ونثرت الورد على أديم العطاء .. وكل الأطياف كتبت (اسمك) في قلوبنا .. تنبض في شرايين حياتنا.

أجل، ليست حكاية سطر، أو اصطفاف عبارة، ولكنه صدى يتمخطر بذكرك)... الخ

٤/ وتحت عنوان : (أحبوك فنعوك) أو هو : فصلٌ من البارّة لطيفة الجميح – في كتاب لها عن والدها (محمد)- .. ولا غرو أن تُفرد من (الوفاء) لمن آثرى عن والدها.. بإعادة مقالاتهم "التي نشرتها الصحف السيارة" تثبيتاً لإحسانهم لمن يستحق (حُسناً لصنيعهم).

.. وأقتطفُ عنه.. من مقال الأستاذ (خالد المالك) – رئيس تحرير (الجزيرة)-:

(محمد الجميح ممن يعتصر عليه القلب حزناً، فهو – إن شاء الله – من أهل الدثور الذين ذهبوا بالأجور.. أفاض الله على أيديهم الخير والبر للقريب وذوي الرحم وابن البلد والقاصي والداني من بائس وفقير ومهموم بدين أو غرم، فنفعهُ عامٌ في دائرة الهم الذاتي، وفي دائرة المصالح العامة كبناء المساجد.

ومنذ بلغت الحلم ما شهدت عليه تكبراً ولا صلفاً ولا اغتراراً بالمال والجاه..).

٥/ وكتب الأديب (الوفي) عبد الفتاح أبو مدين[1] :

في رحيل فقيد علم الإجتماع " د. عبد الوهاب مطاوع" - رحمه الله -:

" هذا .. الذي قضى في العمل الصحفي أكثر من أربعين سنة، يعمل بجد واجتهاد وإخلاص، له مؤلفات في شتى المجالات، خاصة القصصية التي كتب فيها، وأصبح عضواً بارزاً في الأهرام أكبر وأقدم الصحف المصرية الباقية، وأبرز الصحف في العالم العربي، وبخاصة في - بريد الجمعة - الذي يصب فيه قضايا اجتماعية، وخلال تلك الصفحة المتميزة، يركز الأستاذ عبد الوهاب مطاوع على تقديم آرائه القيمة البَّاءة لقاصدي (بابه المهم)، بقدرة رجل متمكن..." الخ، صحيفة (الجزيرة) - عدد ١١٦٥٩-

---

(١) .. هذا الأديب الغزير عطاء وحباً ووفاءً والذي نتعلّم من أمثاله، أضعاف ما نتألم من خصومه..، وأحسب أن سعيد السريحي أصاب، حين أوجز : حين يكتب تاريخ هذه الحقبة من حياتنا الثقافية . ثم لا يكون أبو مدين في سطره الأول .. فإنه عندئذ سيكون تاريخاً مزيفاً للحقائق.

٦/ وكتب "د. عبد العزيز الخويطر" في فقيد الطبّ والأدب (عبد السلام العجيلي) ١٩١٨-٢٠٠٦م :

(أن يتفرغ أديب للأدب، ويأتي فيه بالعجب، أو يتفرغ كاتب لكتابة القصة فيبدع، ويأتي بما يُدهش، كماً ونوعاً، وأن يقف كاتب حياته الفكرية لكتابة الرواية ، فيقف الناس له احتراما وتبجيلا، وأن يتخصص شخص في التاريخ أو السياسة، فيفسح له على رف المكتبة حيزاً يليق به، فهذا مفهوم ومقبول وليس غريبا، فالتفرغ مع صفاء الذهن، والعقل اللماح يأتي بشيء من هذا، أما أن يأتي طبيب فيملأ مكانه في تخصصه ويزيد، ويملأ بردي الأدب والتاريخ والرواية، والقصة، ويكون حاضرا في كل منتدى إلا ما قل، ويستجيب للدعوات في إلقاء المحاضرات أو حضورها والإستماع لما يقال فيها، مستمعا ومشاركا، ويترك من الكتب والآثار الأدبية شيئا كثيرا، فهنا تكمن المعجزة ، وهنا تأتي الدهشة ومن هذا يأتي الإعجاب، ويبرز التقدير.

ثم أتمّ : أمامي الآن على رف مكتبتي -في الرياض- تسعة وثلاثون كتاباً من تأليف الدكتور عبد السلام، بودي لو عددتها كلها هنا، ولكن ليس هذا مكانها، ولكن ما لا يُدرك كله لا يترك جله، ومنها: أجملهن، (ادفع بالتي هي أحسن)، (محطات في الحياة)، (حب أول وحب أخير)، (سبعون دقيقة حكايات)، .. ا. هـ.

أجل كهذا القول نُثريه عنه، ويستحق أضعاف ذلك - يرحمه الله-

٧/ و.. عن (د. بكر أبو زيد)، الذي أحسب أني وددت أن أرثيه لكن لم يكن في أدوات نثري — أقولها بصراحة- ما هو متيسّر (على مدى إطلاعي).. أو موافٍ عنه، فتذكرة قول الذهبي (لا يكتب عن الأئمة إلا إمام) بخاصة حين (تشرّف) وعين إماماً وخطيباً للمسجد النبوي الشريف بين عامي ١٣٩١هـ حتى ١٣٩٦هـ. وهو ما شلّ بياني، فلعل.. في أطراء تلاميذه كافٍ.

.. أو أحسبني تركت هذا لمن هو أهلٌ.. في أحد خلصائه وتلاميذه النجباء، ما كتبه الأخ الفاضل: فهد العبودي - الجزيرة عدد ١٢٩٣٦ -:

(أجل لقد اضطرمت الأعماق، واضطربت الأفكار، بعد وفاة فضيلة الشيخ العلامة "بكر بن عبدالله أبو زيد"- رحمه الله-، الذي غربت شمس حياته قبل غروب شمس يوم الثلاثاء الموافق ٢٨-١-١٤٢٩هـ فالحمد لِلهِ على قضائه وقدره.

.. بين لوافح الإضطرار، وكوابح الاضطراب، سللت يراعتي لرثاء هذا (البحر) نثراً، بعدما انحسرت بحور الشعر، وجزر مد تعبيرها عن مد فضله، وقصر أمد تصويرها عن أمد فقده.

وأرقـت كـي أصـفُ الشـعور بدقّـةٍ فعجـزت عنـه وهـدَّني الإرهـاق
مـاذا أقـول؟ مشـاعري مكولـة والشـعر بـاتٍ حليفـه الإخفـاق

وودعنا هذا الحبر بعد أن أودع علمه في أسفاره التي حبّرها.

ولئن طويت صفحة حياته فلن تطوى صحائف حسناته- بإذن الله- التي ما زالت تسترفد من بحر علمه في تلك الأسفار.

لقد خلّف الشيخ- غفر الله له- إرثاً عظيماً، وألّف كُتباً علميةً كثيرةً، .. دعا الناس إلى (حراسة الفضيلة)، وناقش مخالفيه في (الردود)، كما أنه بين للأمة (فقه النوازل)، وكشف لها (المناهي اللفظية)، وعندما كثرت الفتن سعى- رحمه الله – إلى (درء الفتنة عن أهل السنة)[1].

ولقد كلت براعتي من تعداد إرث الشيخ ومآثره:

يـا (بكـر)، كـم خلّفـت مكرمـة قـد كـلَّ مـن تعـدادها العـد
خلفـت فينـا مـا يُـذكّرنا بـك، لـو رحلـت، فلـم تـزُل تبـدو

٨/ وقال الأديب (عبد الكريم الطويان) **تأبيناً لأهل ودّه (عيد الجمعان):**

وقد بدأه بـ : "حين وقفنا للصلاة على (أبي عبدالله)، بُعيد فريضة العصر ، سمعت الإمام يقول : (الصلاة على الرجل) لا أدرى لماذا داخلني شعور نفسي ، بأن هذا اللقب هو أفضل ألقاب (أبي عبدالله)!

لو أن هذا الرجل في مضارب البادية لكان أحد قادة القبيلة وفرسانها، لكنه في مجتمع المدينة أحد دُهاة الرجال، وأحد الشخصيات العصامية المكافحة المولعة بالنجاح والكسب ومعالي الأمور".

وأقول / فحُقّ بعدها لهذا (الصاحب)[2] أن يفخر - وبعد الموت - بأمرين الأول : هذا الدويّ الذي تركه فولّد كهذا التأبين له، والثاني: كسبه هذا الصاحب الذي وفى وأحسن في وصفه وفي إبقاءه ذكره.

ولعل ما يأتي في (الصفحة بعد التالية) .. عن "الزيات" شهادة باقية في عقبه - حتى بعد زوال (وقت) تأبينه، .. فإن هناك ما ليس مُعلقاً أو.. وقفاً على مناسبة (الحدث) فحسب، كما عللت في مطلع مادة أُمّي (ص١٤٩)-

---

(١) ملاحظة .. ما بين القوسين عناوين مؤلفاته.

(٢) لهذا جاء في الحديث : { المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالل} - وفي المثل: الصاحب ساحب!، ف :

عن المرء لا تسأل، وأسأل عن قرينه فكـل قريـن بالمقارن يقتـدي -

ثـم ..

أو (شِعراً)[١] .. ما يوازيه أبياتاً لأحمد شوقي - في رثاء أحد أعلام مصر - :

مـن ظـنّ بعـدك أن يقـول رثـاء ... فلـيرثِ مـن هـذا الـورى مـن شـاء

فَجَـعَ المكـارم فـاجعٌ في ربَّهـا[٢] ... والمجـد في بانيـه، والعليـاء

ونعـى النُّعـاة إلى المـروءة كنزهـا ... وإلى الفضـائل نجمهـا الوضّـاء

سـارت جنـازةَ كـلِّ فضـلٍ في الـورى ... لـمّـا ركبـتَ الآلـة (الحـدباء)[٣]

ثم .. والعجيب: أن الشاعرين الكبيرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم (وكانا فرسي رهان عصرهما)[٤]، كان كلٌ منهما يتمنّىٰ أن يموت قبل صاحبه ليُرثى من قِبله، لكن شاء الله أن يسبق حافظ، فرثاه أحمد بهذا الاعتراف :

قـد كنـت أوثـر أن تقـول رثـائي ... يـا منصـف المـوتى مـن الأحيـاء

فـ: بالله كم يُلامس (مطمعك) أن يُقال أو ينُظم بك مثل هذا – بعد رحيلك-!، وكم تود أن تبلغ في أعين الخلصاء للأمّة كـ هذا المقام، وكم تُحب أن تُجبِرُ مَن بعدك[٥] أن يقول فيك مثل هذا، أو يسطّر لك ولو – على الأقل – بعضُ هذا!

وصدق الله العظيم القائل:﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الصافات ٦١) .

و من نفس القصيدة (السابقة) - .. تأطيراً :

(المـرء) يُـذكر بالجمائـل بعـده ... فـارفع لـذكرك بالجميـل بنـاء

واعلـم بأنـك سـوف تُـذكر مـرة ... فيقـال: أحسـن! أو يُقـال : أسـاء

أجل وربي فما ينشد المرء بعد رحيله (من بعد رضاء الله عنه).. إلا الذكر الحسن، وأنظر كهذه .. وهي أتيةٌ بعد (عقودٍ) على رحيل ذلك الجهبذ (أحمد الزيات) وما يقال عنه .. للآن!

---

(١) .. مع فصل كامل في كتابي (ديوان البيان) - .. عن الرثاء شعراً، تحت عنوان " في وداع الأحبة " - ومن قبل نشرها بالكتاب تم نشرها في (المجلة العربية) عدد: جماد الثاني/ ١٤١٦هـ.

(٢) ربّ الشيء .. أي : مربّيه، وغارسه.

(٣) كناية عن (النعش) الذي يُجندل فيه الميّت إلى قبره .

(٤) أي بالرثاء [*]، مع الاعتراف لشوقي بالسبق. في غير الرثاء- (*) وكما تقدم آشارة لهذا في هامش (١) ص٣٣ -

(٥) ولا تستكثر، فكم .. من الإكفاء أمسى (نابغة)، أو فاق أقرانه، حين تحول لديه هذا الوضع إلى درجة التحدّي!

ومما قال فيه الأديب " عبد الرحمن السدحان ":

(وكان لأدبه مريدون ومعارضون سواء، وهذا لا ينفي أو يلغي إجماعهم على تفوّقه البلاغي، وأنه كان يقف على أرض صلبة من الولاء الوطني والقومي..).

ثم.. قال : (أُقر بملء الوعي والإرادة أن في بعض وصفي الزيات بأنه كان نجماً فهوى، افتئاتاً صريحاً على عبقرية الرجل وسيرته الأدبية المحلّقة، فالزيات رحمه الله كان نجماً ساطعاً، ولم يهو ولن يهوي بإذن الله أبداً، لأن عطاءه البليغ حاضرٍ لا يغيب في أفئدة من أحبوا أدبه وتابعوه نصاً نصاً، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً! أجل .. مَن قال إن الزيات قد مات فهو ظالم للرجل: أدباً وصيتاً وأثراً، حفظ الله الزيات (حياً) عبر إرثه الإبداعي الجميل، وأسكنه ميتاً في نعيم الخلود!)؟.

وأجزم أن هناك كثرة تستحق ويعيشوا بين أظهرنا، لكن أنّى لي معرفتهم، أو مناسبة - سببُ - ما أكسب به لقائهم.

هـذا ، ...

وأمشج بينهما: (التأبين.. والرثاء)، لمادةٍ شعرية، استقرأتها بقلمي (نثراً)، .. وهي (ربما) من أنصع النماذج .. شعراً: رثاء المتنبي، لـ (خولة)- .. والذي شدّني لأستقرئها بجماليات نثرٍ (أحسبها) تفي غرض مُطالِعها، إذ كان بينهما (حبّ خفيّ) أشار إليه بعض محققو ديوانه[1].

بل حُسن سبكه بهذه (المرثيه) ما أَطرني على الوقوف عليها بتمعن، سبقني إلى الاعتراف به الوزير (ابن العميد) - كما سيأتي ص١٣٩-

وذاك في طرحٍ اسميته: (الغزل الجاد.. في رثاء "خولة "). وأُسطّره (هنا) - مقتضباً - بعنوان (رثاء خوله):

.. وفي ثنايا هـذه (المادة) الكثير مما أحسبه يوافق (ماء)، وموضـوع الكتـاب

(١) بخاصة من تمعّن بسيرته (محمود شاكر) – انظر ما يأتي هامش (١) ص ١٣٧- ١٣٩ .

obeikandl.com

رثـــاء (خولـــة)(*)

مدخـــل :

قال صاحب هذا (الرثاء) – المتنبي - :

حشاشـة نفسٍ ودّعـت يـوم ودّعـوا .. فلـــم أدرِ أيّ الظـــاعنين أُشـــيّعُ

.. عند " الوداع " يكون مثل ذا ، فماذا يكون إذاً عند الفراق ؟! .. والذي ما بعده لقاء.

أظنك – يا أبا الطّيب - ستعيد إحدى بدائع سبكك :

لـولا مفارقـة الأحبـاب مـا وجـدت لهـــن (المنايـــا) إلى أراوحنـــا سُـــبلا

.. ومع المبالغة "المقبولة" بمثل ذا التبدّع – إذ لابدّ من الفراق، لقول الحق سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (آل عمران ١٨٥) .. ، ومن هنا فإن:

" حكم المنية في البرية جارٍ.. – .. كما يُقرر (التهامي)-

والذي قد يقل إيجاد نظيره.. لدى نظائرك، فلا على القارىء –المشغوف بجمال المعنى مع روعة المبنى – أن يخطر له خاطره بسؤالك: ماذا عنيت بقولك:

أمـــا (الـــبين) فهـــو مـــا أعهـــده هـــو تـــوأمي، لـــو كـــان بـــينٌ يُولـــد ..؟

(*) أو: (الغزل الجاد في رثاء خوله).. كما آتى أصل عنوان (المادة) التي : نُشرت بصحيفة (الرياض) - صفحة التراث/ عدد ١٠٨٤٠-.

وقد يكفيه جوابٌ من متزلّفٍ " مثلي "[١] قرأ ظاهر فَنِّك – مع قليل من سيرتك- .. .. فاختصر بـ :

أن ذا " الحكيم" فارق صبياً .. داره – إلى البادية -، وفي شبابه مشرب صباباته- عاش بالبادية –، وفي رجولته ترك أطلاله – بـ (بغداد) - .. ثم تسلسل الفراق يتبعه أينما حلّ.. - .. ارتحل - : " **أما الأحبّه فالبيداء دونهم** ".

لا .. بل (**والصفائـــح والصخـــور**) .. – كما يقول أبو العتاهية - :

ولكن الشاعر يُجيب – دون سؤال – عن أثر ذا " البين " الملازم.. له، بـ :

خُلقت ألوفاً، لو رجعت إلى الصِّبا لفارقتُ شيبي مُوجعَ القلب باكياً

" خولـــه " :

لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ، وما لقي وللحبِّ، ما لم يبقَ مني، وما بقى

كان .. لأبو الحسن : (علي بن عبدالله بن حمدان)..

أميرُ " حلب "[٢] - في عهد شاعرنا - أُختان[٣]، كُبراهما " خولة " ، وهي من مال لها قلب الشاعر - كما يُومىء لهذا (سميح القاسم) بـ :

---

(١) .. الذي لا يخامرني شكّ أنه يعنيني.. عندها هذا القول :

فحسبت (نفسي) حاضرة معكم، ولا تعجب إذا كان الغياب حضوراً

.. إن القلوب إذا صفت مرآتها وإن حُجبت.. ترى ما بها منظورا

(٢) .. هذه المدينه العزيزة على القلب مقاماً، وذكرياتاً و.. ، قال فيما يقول الأخطل الصغير :

لو ألّف المجد سفراً عن مفاخره لراح يكتب في عنوانه: حلبا

أما الوزير أبو القاسم المغربي فيقول :

يا صاحبي إذا أعياكما سقمي فلقياني نسيم الريح من حلبِ

مِن البلاد التي كان الصبا سكني فيها وكان الهوى العذري من أربي

(٣) .. والصُغرى : (فاطمة).

قــولي لهــا يــا أُختهــا الصُّــغرى عــــيني عليهـــا أُختـــكِ الكُـــبرى-

.. إذ وجد عندها شيئاً من التقدير والإجلال. وكذا بعض التفتاتٍ منها صيّرها بعض[١] محققي ديوانه " حباً".

وإن كان أكبر ما يُستدل به على حبِّهِ.. قولهُ – يعنيها - :

.. ولا ذكـرت جميلاً مـن صنائعها إلا بكيـــتُ.. ولا ودَّ بـــلا ســـببِ

و الغالب-: أو بالفعل · أن لا " ودّ " بلا سبب .

فهل السبب – هنا – ميلها له، أو دلّها عليه..، أو دواعي جمائلها إليه؟!

أما التبيان الأكبر على مالها لديه.. قوله – مخاطباً أميرة أخاها – في موازنة بينها وبين أختها الصغرى: (و.. التي ماتت قبلها) :

.. قد كان قاسمكَ الشخصين دهرهما وعـــاش درهمـــا المُفـــدى بالـــذهب[٢]

وعـــاد في طلـــب المـــتروك تاركـــه .. إنّـــا لنغفـــلُ، والأيـــامُ في الطلـــب

أجل وربي: نغفل.. والمقادير – وقد كنّى عنها بـ (الأيام) – في الطلب.

رثاء " العاشق " :

آهٍ..- رحلتُ.. فكم باكٍ بأجفان شادنٍ[٣] عليّ!!.. وكـم بـاكٍ بأجفـان ضـيغمِ-

أكيد أنه حين فرّق الحساد بينه والأمير .. وقع ذاك الفراق كرمي[٤] يدقّ كل دروعه، ولعل ذا ما جعله يزفر.. على الفراق الذي أحاله عن جوىً كان يستظل بعبيره..

---

(١) كـ " محمود محمد شاكر " .. انظر سِفره الجليل : (المتنبي) ص ٣٣٣ فما بعدها.

(٢) يقصد خوله بـ " الذهب ".

(٣) الشادن/ صغير الغزال – يعنيها (أخت) الأمير..!

" وهذا البيت من (ميميّته) في وداع سيف الدولة، والتي عنى المحبوبة به.. بهذا البيت :

رمى واتقى، ومن دون ما تقى (هوى) كاسراً كفّي وقوسي واسهمي

(٤) حتى يتمم عتابه بقوله :

يا مَن نُعيتُ على بُعدٍ بمجلسه!!

=

وما منزلُ اللذَّاتِ عندي بمنزلٍ إذا لم أبجَّل عنده.. وأكرَّمِ[1]

على أن درع الأمير – وإن لم يتدرّع – هوى أخته .. والذي / كسر كف وقوس وأسهم " أبي الطيب " ..

فلا عجب أن يبتدر حين تلّقى النبأ .. أن ينظر وهو في (الكوفة) إلى سمائها مستقبلاً " الشهباء "[2].. فينفث من مواخر الفؤاد .. ومردداً -في صداه -:

طوى (الجزيرة)[3]. حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ

أي: كم تمنيتُ (وبكل آمالي) أنّ ما نبأ إليّ .. يكون: خبرٌ كاذب، لكن!

.. ولِلهِ درُّ من ابتدع في استقراء مكنونها.. ليُلفت إلى أنّها أوّل ما نظمه المحبوب– هنا – أبو الطيب[4].

كيف لا نتصور صدق ذلك، فالقارىء يُدرك من قوله في صدر ذا الرثاء:

١/ يا أخت خير أخٍ، يا بنتُ خيرُ أبٍ كنايةً بهما عن أشرفِ النّسبِ

٢/ أجلّ قدركِ أن تسمّي مؤبّنةً ومن يصفكِ فقد سَماكِ للعربِ

أنه .. – هنا – إبتداء ببعض ترجّلٍ غير معهود في الراثي!.

و .. بل لكأنه يمدح.. أو يُثني ..، ثم يتلمّس أبو محمد[1] عينيه..، ويتحسّسُ خدّيه فيجدهما وقد تبللا..

= إذ أشيع بعد رحيله من حلب: (موته)، في مجلس سيف الدولة.
.. وبالمناسبة، فهناك شخصيات نُعيت وهي حيّة ، كشاعرنا من قبل ، وحديثاً: الزيات ، وكذا (نوبل) - صاحب الجائزة (والتي .. أي الإشاعة: كانت سبباً في إنشائه الجائزة المعروفة بأسمه)-، انظر توسّعا. مادة: (أعلام نُعوا في حياتهم) لأيمن ذو الغني- (المجلة العربية) عد ٣٧٤- .. وكان " خير الدين الزركلي" .. كان من شرطه في كتابه " الأعلام" إلا يُترجم للأحياء.

(١) وهذا معنى سُبق إليه، قال عنتره بن شداد :

لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظلِ

(٢) .. أي : " حلب ".

(٣) اسم مكان – يقع بين سوريا والعراق (اليوم)-

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٨.

٣/ لا يملك الطّرب المحزون منطقه ودمعــه.. وهمــا في قبضــة الطــرب

آه .. – ومن الأعماق –

٤/(غدرت يا موت)[٢]،كم أفنيت من عدد بمن أصبت!.. وكم أسكتّ من لجبِ![٣]

٥/ وكــم صــحبت أخاهــا[٤] في منازلــةٍ وكم سَألت.. فلم يبخل ولم تخبِ!

.. ثم يزفر- وأعماقه تتلظى.. لكأنها في جمر (بُعدهِ) وتوقّد بينها عنه، يُحرق مهجته- :

٦/طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعــت فيــه بأمــالي إلى الكــذبِ

٧/حتــى إذا لم يــدع لــي صــدقه أمــلاً شــرقتُ بالــدمع حتــى كــاد يشــرق بــي

- واستطراداً : يروى أن الوزير (ابن العميد) استمدح المتنبي فأبى، فقال الوزير لا يُنشدني أحداً من شعر " المتنبي " إلا قتلته، ولما تُوفّيت أخته جاءته ما يربو على ستين رسالة (عزاء) مُصدّرة بهذين البيتين، فسأل لمن هي ؟، فقيل : للمتنبي ، فقال : (هذا كالشمس انتشر، فأنشدوا شعره).

.. ويخاطب هذا الذي " طوى الجزيرة " .. بـ :

٨/تعثــرت بــك في الأفــواه ألسُــنها والبرد[٥] في الطرق، والأقلام في الكتبِ

---

(١) المشهور (أبو مُحسّد) لكن .. كما قال هو : أني اسميته مُحمد، وأناديه بـ : مُحسِّد!

(٢) .. ولعل هذا من المجاز اللفظي – وإلا فإن الموت لا يغدر.. وقد علمنا .. أن ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد ٣٨) - وانظر هنا (ثالثاً) ص ٥٩-

(٣) اللجب ، أي : صخب وضوضاء- حال : وطئة الحرب -

(٤) .. أي سيف الدولة " في المعارك " – والذي قيل أنه غزى الروم ما يقارب أربعين مرّه، .. له وعليه-

(١) البريد.

فـ .. لـ

٩/.. كأن (خولـة) لم تمـلأ مواكبهـا (ديـار بكـرٍ)[١].. ولم تخلـع ولم تهـبِ

.. هذه الكريمة!، وهذه الجابرة .. :

١٠/ ولم تُـرد حيـاة.. بعـد توليـة ولم تُغـث داعيـاً بالويـل والحـربِ

وأيضاً

١١/ ومن مضت غير موروث خلائقها – وإن مضـت يـدها مورثـة النشـبِ[٢]–

و.. بين جمال جوهرها :

١٢/.. و همهـا في العُلـى والمجـد ناشـئة وهـمُّ أترابهـا[٣] في اللـهو واللعـبِ

وبين جمال منظرها :

١٣/ يعلمن حين تُحييّ حُسن مبسمها .. ولـيس يعلـم إلا الله بالشـنبِ

لهذه التي

١٤/.. و إن تكن خُلقت أُنثى، فقد خُلقت كريمـةً، غـير أنثـى العقـل والحسـبِ

- أي : لهذه التي (عناها) بعدُ :

---

(٢) .. اسم مكان- وهي (بانمان) أحد أهم مدن جنوب تركيا اليوم -

(٣) وهذا (العجز) الذي عبّر عنه، بقوله :

مَن لا تُشابهه الأحياء في الشيم أمسى تُشابهه الأموات في الرُمِ

(٣) تُرب المرء : من ماثله سنّا ، أو قدراً، أو مكانة .

(شـــاميّة) طالمـــا خلـــوت بهـــا تُبصـــــر في نـــــاظريّ مُحيّاهـــــا-

.. هل بقى في المعين شيء ؟

١٥/ فليت طالعة الشمسين غائبةً وليـــت غائبـــة الشمســـين لم تغـــبِ

١٦/ وليت عين التي آب النهار بها فـــداءُ عـــين الـــتي زالـــت ولم تـــؤبِ

هذه " هي " ..

أما مالها فلا أقلّ (وفاءً) .. لـ معروفها :

١٧/قد كان كلُّ حجابٍ دون رُؤيتهـا - فما قنعتِ لهـا يـا أرضُ بالُحجـب!

حتى " الناس " ..

١٨/ولا رأيت عيونَ النـاس ترمقهـا فهـــل حســـدتها أعـــين الشُّـــهبِ

.. إذا .. فـ : لا .. فـ : عليك أيها الراثي .. حين تقول – كالمقرر – :

أبـى خُلُـقْ الـدنيا حبيبـاً تُديمـهُ، .. فمـا طلـبي منهـا حبيبـاً تـردّهُ

.. أما التوجّع الذي لا يمكن إنكاره ..

١٩/هل سمعت سلاماً لـي ألمَّ بهـا؟ فقـد أطلتُ ..، ومـا سـلّمت مـن كُثـبِ

.. أما بعدها .. فلا سلاماً عن كثب .. ولا حتى عن بعد ..، حتى وإن كان:

يُـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم وتـــأبى الطبـــاعُ علـــى الناقـــلِ

وذا .. مما لكِ في القلب!

أمّا " خليليْ " أخاكِ :

٢٠/جـزاكَ ربـكَ بـالأحزان مغفـرة .. فحزن كـلّ أخـي حـزن أخـو الغضـبِ

وهل على مثل ذا .. كذلك، إلا أن المقصد: **إن " العظيم " على العظيم صبور**[١].

.. وما لم نختم بأسلوب الشاعر الحكيم – وخاصة في الرثاء - .. بـ حِكمٍ ينثرها هنا.. وهناك، فقد نظلم نظم " الشاعر " .. إن لم نظلمه " هو " :

٢١/سُبقنا إلى الدنيا، فلو عاش أهلها مُنعنـــا مـــن جيئـــةٍ وذهـــوبِ

٢٢/تملّكهـا الأتـي تملّـك سـالبٍ وفارقهـا الماضـي فـراق سـليبِ

.. ولما لا يكون فراق موروثٍ .. لوارث، كما .. أكّد (ابن التهامي):

.. مـا هـذه الـدنيا بـدار قـرار

لا ، .. ولن تكون .. ! ، لأن : **هو (الزمان) مُشتٌ بالذي جمعا**

.. أي: كما وصّى جبريل عليه السلام نبينا محمد ﷺ:

" يا محمد، عش ما شِئت فإنك ميّت، وصاحب من شئت فإنك مُفارق.." الخ.

(١) العظيم الأول (سيف الدولة) ، والآخر: الموت .